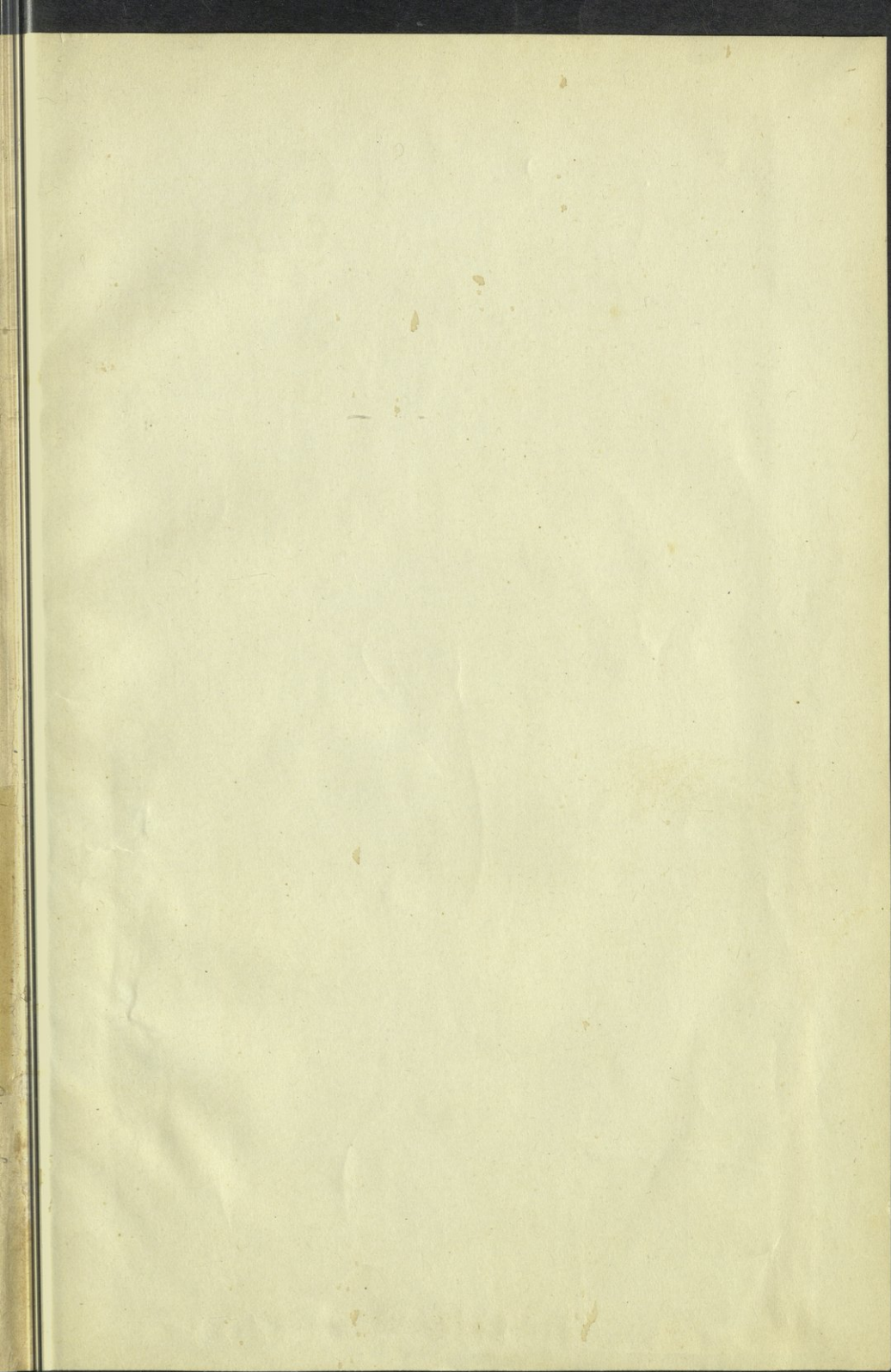


A. U. B. LIBRARY



11



297.63
H968 nA
v.1
c.1

النبي محمد ﷺ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بمصر من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسين الأزهري
من كبار علماء الأزهر الشريف

١٤٨
أجزاء الأول

١٩٤٧

مطبعة الاعتماد بمصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وعليه فليتوكل المؤمنون ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ،
والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وبعد فلقد أتم والدي الأستاذ الجليل محمد حسين
الأزهري من كبار علماء الأزهر الشريف وكان تلميذا لفقيه الاسلام الشيخ
محمد عبده رحمه الله - تأليف هذا الكتاب ، وكان على وشك الطبع ، فلأسف
الشديد اختطفته يد المنون وكل نفس ذائقة الموت ، فوفقتي ربي إلى أن أهدي
لقرائ السكرام كنزاً من كنوز الاسلام وما توفيق إلا بالله ، ولقد سمحت
لي الظروف وانتهزت هذه الفرصة وبدأت في طبع كتاب « النبي محمد ،
لأجدد الاسلام في النفوس ، وأحيي ذكر والدي رحمه الله عليه وأدخله فسيح
جناته ، فأرجو أن أنال الرضا وأكون على وفق في هذا العمل الجليل وفقنا الله
جميعاً لما فيه ذكرى لأمواتنا وتشجيعاً للاسلام ولخدمة الدين آمين .

الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأشكره . وأشهد أن لا إله إلا هو الأول الآخر ، الباطن
الظاهر . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نبي الرحمة . وهادى الأمة . صلى الله
عليه كما يقتضى وحتى يرتضى . وعلى آله وأصحابه . وأنصاره . وأحبابه
ومن تبعهم باحسان . إلى آخر الزمان .

مقدمة المؤلف

كلمة المؤلف

لجماعة المستشرقين ومن تبعهم مذاهب متنوعة في الحكم على تاريخ النبي محمد ، وغيرهم يرى أنهم كالناظر من قفا معمعان حرب لا يبصر سوى من لفظه المعترك فخرج هاجأً ينتجى بالفرار .

وفي السواد الشرقي واخص منه سواد الأحداث في مصر نفر وصف بسعة الاطلاع ، بلغ به البحث الى تصويب رأى أولئك المستشرقين .

قد يكون لما نعت به هذا الحدث من الاطلاع نصيب من صحة . وإنما اكتفاؤه بالوقفة في مستوى علم المستشرقين يساق منه دليل على أنه تشبع برأى الغربي فقاده الى كراهية العربي قبل أن يطلع على أسرار كتب العرب ، أو كأن اطلاعه عليها مجرد اطلاع غير مغنٍ ، وما جهل أن العلم يفيد العلم ولا يفيد العقل وأن التفكير صناعة .

ثم إن الإطلاع الفردي إذا خالف في النتيجة إجماع جماهير العقلاء ، كان باطلاً ، أو على الأقل ناقصاً والغناء من البحث عن بعض البحث لا يعول منه على نتيجة .

وغير أولئك ومثلهم في الرأى منتسب الى العلم شب على تقاليد لم يمرر بها على العقل سيقت اليه قبل أن ينضج بنفسه الاعتدال وحجته في اعتناق مذهب المستشرقين أن كتب سير النبي محمد عسرة التلخيص بعيدة الاستنتاج . تاريخ النبي محمد بدء حياة جديدة للبشرية وأولية انقلاب عام لحضارة العالم الإنساني . والجاهل به لا يوثق في موضوعه بعلمه ولا يعتد برأيه . ولا يعذر عالم أو منتسب للعلم بالاحتجاج عن الاحاطة . به بتعدد الروايات وشبه تخالف في الأقاويل .

ولا أحسب باحثاً في سيرة النبي محمد يغنى عن الأخذ بالصادق لابهذه الروايات المؤيدة بالتواتر وإيماني من مفاهيمها بقدر مؤهلاته الطبيعية واستعداده الفطري فان زاعغن نقص طبعه تقصير الطبيعة فيه .

قرأت وفهمت ما تقدم فعجبت أن رأيت من يخالف فيه ثم بدا لي بعد أن المخالف ربما كان له عذر . إذ رأيتني أنظر من الجهة التي تليق ومن نوع ما وعت نفسي ، وبالقياس عليه يكون مخالف لا يستطيع أن يودع ذهنه غير ما يتطلب طبعه فأجبت أن أضع نفسي موضع ذلك المخالف لا يبصر بنظارتة . فوقفت موقف البعيد عن المعترك وتصفح ما تسنى من كتب تاريخ النبي محمد . فأثبت ما طال مختصراً أو ملخصاً اعتماداً على ما شهد حسن صدقه . أرويه كتاريخ عظيم . لا يخرج عن حد أوضاع الرواة عنه مبتدئاً به قدر ما استطاع التاريخ أن يبلغه . وما يسوغ قبوله عقلاً في الرواية عن أجداد هذا النبي وأول أولئك عدنان بن أزر (أودار) أخو قحطان . وعدنان في ماروى أشهر الرجال العطاء في تاريخ العرب . وقد يكون مسبوقاً في سلسلة نسبه بأعظم منه غير أن وقوف روايات الحفاظ عنده ودورانها حوله . دل على واسع شهرته وعظم مقامه وكرامته . ولا أريد أن أذهب قصياً وراء قحطان وولده . إذ سبيل تعقب عدنان من حيث إنه أكبر عقده مرتبة ونهاية ما وصل إليه الاستقصاء علواً في عقد نسب النبي محمد . وليس ما ابتغى تتبع عدنان في كل ولده . بل استقراء ما حفظ التاريخ عن كل كبير من ذراريه الذين تداولوا رئاسة الأشراف في مكة وكانت لهم اليد على البيت فيها وثبت أنهم من أجداد النبي محمد ، أروى ذلك اجمالاً ليرى في ثنايا الحالات العامة من أولئك الأجداد مقادير شرفهم ومراتب نبالتهم . ولأحط المطلع بتاريخ هذا النبي ولا يتمثل إنسانه

وحياته منذ الاولية أكثر ظهوراً من تواريخ عظماء الأرض طراً . فقد كان من أبناء الأمراء وكبار العشائر من أشرف مكة . والذين هم كملوك في العرب ، وكروساء يرجع إلى رأيهم . وكان في أهله بين طوائف يدور بها سور نطوق من جبال على شكل بلد واحد متوسط المساحة بالنسبة إلى السلاطنة المتحضرة يشمل اثنتي عشرة عشيرة يقدر مجموعها بنحو عشرين ألف نسمة . يفصل كل عشيرة عن الأخرى درب ضيق العرض يبلغ جميعها صوت المنادى . وكان من خصال العرب شدة التحفظ من السمعة وبها حسنة وسيئة . ولهم عناية خاصة بما يذاع من ذلك عن الكبير والصغير والغنى والفقر . وكانوا أشد في الشدة على النشء . فلا يعتاد غير الممدوح من الأعمال والمحمود من الأقوال . فكان منهم دائماً رقباء عليهم . ولا يلبث رجل أو امرأة أو غلام يأتي أمراً محدثاً إلا أخذه لسان النقل وسارت به الأخبار وإذا كان هذا بين عمومهم فأولى أن يكون في خصوصهم . ولأحق به أن يكون في الأخص من الكبراء . فان عبد المطلب جد محمد كان كبيراً في أمراء قريش وشيخاً للعرب كافة . فأقل حدث في أسرته لا يلبث أن يمسى معروفاً في كل طبقات مكة وقبائل العرب . وإن موت والده عبد الله وهو في نحو الثلاثين سنة وفي حين أنه لم يمت من ولد عبد المطلب قبله ولد آخر . وقبل أن يبلغ حظاً في التمتع بزوجه . وكذلك موته في أثناء حمل زوجته . هذا يجعل الحزن والتوجع مزيداً على الأمير الشاب ابن الأمير الكبير . ويلفت أنظار قريش وحلفائها إلى تعقب شأنه . وإذا كان قد تلا هذا وجود ابن لعبد الله الفتي ووفاته وزوجه ووليدها في سن الطفولة . فلا بد أن يكون هذا داعياً لتوجيه القلوب إلى محمد وباعثاً إلى تفقد أحواله . وإذن يكون محمد مرموقاً من الأبصار طبعاً . مطافاً بالبصائر عادة في غيبته وشهوده

وحررته وسكونه من يوم وفاة أبيه ليس فقط من ساعة وضعه . ولما كان أغلب الذين حوله أميين كانت أخبارهم لا تخلو من تحريف في الرواية أو في الزمن أو في الحال . وهذا الخلاف مصدره الغلط في النقل أو السهو في التاريخ أو في أسماء الأعلام . وهذا لا ينهض بالتغيير في روح المروى ولا في جوهر الرواية بما أنه شكلي لا يقف بالتصور عن فهم معناها .

وكان من عادة العرب أن يتوارثوا شرف النسب غير السيادة في القوم فإن هذه لم تكن عندهم ميراثاً للابناء . ولا في قدرة الأب أن يوصى بها ولا أن يهبها لسكبير أو صغير من ولده . وإنما ينالها من ينالها بحكم اعتراف الجماهير له بالمحامد ولو كان أصغر أبناء السيد أو الأمير . وما اتفقت التواريخ اتفاقاً على تفوق محمد عن عداه بمكارم الأخلاق ومحاسن الطباع وشرف الخصال وبنوع أحص ما اشتهر به من الصدق والأمانة حتى بعث بهما . ثم هو من جهة النسب سيد وشريف باعتبار أنه سلالة أشراف نبلاء .

نهض بالدعوة جهرة وتحت الشمس . فبلغها تدريجياً الأقرب فالقريب والبعيد فالأبعد . ونظر كبار قريش وزعمائها في الدعوة إلى اقناع الآخرين الغالطين في تطبيق الدعوة على محمد مع اعترافهم له بالصدق والأمانة قبل ذلك .

وتعقبت قريش محمداً في دعوته . فكانوا يعرضون لأذيائه وضر من اتبعه في النفوس والأسر والأموال . وجعل محمد يخفي دعوته ويحتمي الضعاف من أصحابه بالأيواء إلى بيوت الأقوياء منهم وخشية اشتداد الأذى به وبهم اضطروا لأن يختار إبعادهم إلى بلاد الحبشة . ومع هذه المضايقات كانت أخباره متتالية ولكن تحت ستر وخفاء لا تسمع إلا منقطعة وبواسطة النقل من أصحابه وأكثر هؤلاء أمي .

النقي في بشرية بريئة . ويبدو للبكر والمتردد وخالي الذهن صفاته وأخلاقه
وآدابه . فتظهر فيما يمر من ظروف حياته حقيقة وقف في ناحية منها النقل
المظنون وانحرف عنها قصور بعض العقول .

ويتضح بجلاء سر ماخالف طبع النشء والمستشرق والله الموفق

محمد عيسى

مقدمة

سكان بلاد الصحارى والمفاوز المتقاطعة الاتصال بالخلاء أكثر صبراً وجلداً وأعظم جدة ، وأشد تمسكاً بالعصبية القومية فى كل الأمور ، وميلاً بالطبع إلى الاستقلال والحرية وأبعد عن الاكتراث والمبالاة سم إن سكنى البلاد المكتنفة بالفراغ والبعد عن العار يزكى الطباع . وينشط الخيال حتى ينهض بالوهم فيحل محل العقل .

ويقرب من هؤلاء فى الحال والشأن أهالى الطبقات الفقيرة فى البلاد المتحضرة والأمصار ، بسبب تأثر نفوسهم باليأس من حياة أحسن ، فن البدو وفقراء المدن تنشأ عظامم الأمور وكبار المشاكل والانقلابات فى العالم . الا أن نار الأخيرين أبطأ التهاباً وأسرع خموداً بداعى قرب الأيدى الحاكمة منهم فى الرقاب .

وقد كان سكان جزيرة العرب وبلاد الحجاز على النهايات من الحاصل المتقدمة فلا تسكن فيهم ثورة الطباع ولا تهمد لهم حركة بجديد مفرع ، سواء فيما بين بعضهم والبعض . أو فيما بينهم ومجاوريتهم من أمة أو أمم ، وكانت العرب تأنف الضيم والهوان كل الأنفة وتحشى سوء السمعة أكثر من الموت . ولذلك كانت فيهم أخلاق فضلى وعادات ممدوحة لم تسكن فى أمم أخرى .

فى كل مئة سنة تتغير الأوساط بتغير الأحوال فى العالم المستقر . فيضعف القوى ويقوى الضعيف ويرفع الوضع ويوضع الرفع ، حتى لقد يصيب هذا التبدل وجه المسكون بالتبعية فيعلو المنحط وينحط العالى . واللغات والآداب والأخلاق حتى الأزياء وغيرها فى الإنسان لاحقة بهذا . تنال من التغيير

نصيهاً مناسباً تتدلى أو تصعد بحسب ما يحيط أهلها من شدة ورخاء . ولكن بالتدرج فلا يستطيع الحكم بتغير لحاضر تقلبات الحال . ويكذب القول بغبط أول التغير ما زال يسير معه في تنزله وتصعده .

وكثير من أصول العادات القديمة في العرب بقي شكله أعصر البقاء مسباته ، من ذلك :

توارثهم عبادة الأوثان والنجم والشمس والقمر وغير ذلك بمقتضى البساطة فيهم ومستوجبات وجودهم بين خلوات فارغة ووديان جوفاء من شأنها توسيع الخيال فيحار الواحد منهم أن يجد من جنس محسوسيته مما يركن إليه في تصوره . ولا يرى غير الاستسلام إلى اعتقاد معبود مرئى يجعله واسطة للأله الذى لم يجد له مثالا يرجع إليه في تصوره وإغارة بعضهم على بعض ونهبهم الأموال وسفكهم الدماء . بناء على أن أراضيهم لم تكن بلاد زرع فكان اعتمادهم على نتاج الماشية والإبل والأنعام . وبعد مسافات ما بين البلاد قطع الاتصال بينهم وأوجد بينهم عدم الثقة في التدين والتعامل . فدفع بهم حب الاستكثار من أسباب الحياة إلى الاعتناء بالغارات ، وكثرة الغارات فيهم وخوف الفناء أفضى بهم طبعاً إلى التشبث بالاستكثار من الأقارب والجيران احترازاً من غارة الأجنبي عليهم وهذا مثار العصبية القومية فيهم . أما إدمان الخمر عندهم فلازم لخلو البال من المشاغل يساعده وجود فضاء خلا من العاذل واللاحى .

ولقد كان المرأة فيهم كرامة محدودة . فكانت تؤسر فلا تؤذى ولا يؤخذ عنها فداء . وفي حالة ما تكون أسيرة لا تهان بغير أن تؤدى مثل

ما اعتادت من العمل في بيت أهلها . فإن كانت غير أسيرة كان قولها مسموعاً ورأيها مطاعاً .

ولم يكن فيما ذكر من عادات ضارة غير السلب والنهب وسفك الدم . وانتصار كل عشيرة للعصية القومية وتمسكهم بذلك خلاف فيهم النخوة الجاهلة . والكبرياء والأنفة والعزة وما إلى ذلك من لواحق كحفظ الذمار واحترام الجار وفعل المروءة والوفاء وإغاثة الملهوف والنجدة ومثل هذه الظاهرات الاجتماعية وغير ذلك ما حمل التاريخ عن العرب إلى ما قبل الإسلام من أن الكثير في العرب كان يعترف بالوهمية الله (مع اشتراك المعبودات) ووجوب حج البيت والختان والإشهاد في الزواج والطلاق وتفريق الفراش في وقت الحيض . والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والمصاهرة . وقتل قاطع الطريق — إلى مثل هذا من خلال حميدة — عدا أن تعاملهم بالحق والعدل كان مفقوداً إلا بين من تساوت مقاديرهم في السيادة والشرف ، وهذان كانا على قدر القوة وعدد الرهط وكثرة الأنصار هذه الخصال من طيبة وردية إنما نشأت عن توسط القوة مع سداجة الطبع وهي قابلة للتحول والتغير قابلة مصدرها للضعف والزوال ، بضرورة أن هذا المصدر لم يكن مبنياً على اعتقاد وحدة الخالق في ألوهيته وفي هيمنته على النفوس ذلك الاعتقاد الكافل لثبات المزايا النافعة في بني الإنسان ومحو غيرها من ردىء العادات .

وقد دخلت شريعة موسى في بلاد العرب ، فلم تجد أكثر أثراً ولا حفاوة ، لما فيها من خشونة وجفاء ، وخلوها من السماح والسهولة المألوفين للعرب . ثم جاءت شريعة عيسى على التوراة فريدة بالصفات البشرية إلى شديد التعلق بالإله بمغالة تنفر الطباع من الميل لها ، حتى لقد ينس العقلاء وأهل النظر من أن

يحد نبي في بلاد العرب إصغاء لشريعته ولا سماعاً لرسالته بناء على ما بأدمغتهم من صلابة وفي طباعهم من خشونة .

على أن الصلابة والخشونة في العرب لا تقل في عدم قبول الإرشاد عن تردد الرأي واضطراب الفكر وتقلب الأهواء في بلاد والحضر . ولا بأقل في توقف العقول عن قبول الهداية من رفاهية العيش وراحة الظل في الأمصار . وما العهد ببعيد عن معاناة موسى أشد التعب في بني إسرائيل وما قاساه في سبيل هدايتهم وكفرهم بعد الإيمان .

واقرب إلينا عيسى فقد أمضى عمره يطوف البلاد ابتعاداً عن أذى اليهود له . وأخيراً طوى تاريخ نبوته على أنه لم يؤمن معه فوق الثلاثين ، وما ذاك إلا لامتلاء اجواف بني إسرائيل بالمطاعم وتوزع قلوبهم مع الأهواء وعدم تدبرهم نتيجة ما جاء به حتى الذين صدقوه . وما كانت قريش أكثر عدداً من القبائل غيرها . وإن كانت أشد منعة وحصانة بطبيعة أرض مكة وإنما كان العرب يجلون قريشا لاحتيازها على الكعبة التي لا غنى للعرب عن حجها والتبرك بها . وقد كانت أشد حزية وأمن اتحادا وتنصراً من غيرها يضاف إلى هذا أن قريشا كانت متضامنة متكافلة في التجارة يتجر الواحد للعشرة والمئة منهم . فلا تفرغ لهم تجارة ولا تسكن لهم حركة بمتجر . فوق أن مكة كانت سوقاً عاماً للعرب وبنوع أخص في شهور الحج .

من هذا كانت قريش أحسن حالا وأقل حاجة إلى العرب منهم لها وأكثر اعتدالا في الأخلاق وأذكى عقولا وأبرفعلا وأبعد عن أفعال الجهالة إلى حد - وأقرب إلى الإنصاف والعدل وبذلك كانت أشرف العرب بما أن الشرف عندهم نفع الناس وتجنب أذاهم ، ولو أن قريشاً أسلمت مع النبي لبسط الإسلام يده على الكعبة ومنع الناس عنها أن لم يؤمنوا . ووقف في سوق

بجارتهم واضطروهم إلى التسليم بالدعوة من غير غرم ووفر على المسلمين كثيراً من عناء الجهاد ، وسهل لدعوة الإسلام سبيل الانتشار في الأمصار .

وكان لقريش علم خاص بأحوال العرب وعاداتها يساق ذلك إليهم عن يد التجار والقصاد في أيام الحج وقد تذاكروا مراراً في متحدثهم قبل الإسلام بقليل نقد ما عليه العرب من أمور تخالف العقل : وأجمعوا على وضع مشروع يكفل النصفة والعدالة في البلاد وأن يجتهدوا لاقتناع العرب به .

ظهر محمد من أعلى بيت الكرامة والشرف فيهم ، ناهضاً على الأخلاق الممدوحة منهم فكان موضوع إعجابهم وآية مفخرهم يفضلون به ويحتكمون لعقله ويحترمونه حتى لقد لقبوه بالأمين الصادق .

فلما دعاهم إلى الإيمان بالله وبرسالته ، أبى الكبار والسادات فيهم حرصاً على الوثنية عادات أسلافهم ، وتجنباً لمقتضيات دين يحكم بنزولهم عن الإمارة الكاذبة والرئاسة الباطلة .

وغير أولئك فريق لا يبالى هذه الامارة وإنما يمنعه قيود الآباء من اعتقاد الوثنية .

وأذاع النبي دعوته بأمر الله فكانت أنفذ إلى الآخرين ، بما أن العائق لهم لم يكن مادياً . ولكن هذا الفريق كان يخاف مناوأة القوم ، فكان إلى الدين أشبه بالسرقه يقبله تلصصاً وفي خفية .

واعترضه كبار القوم بجهله أصدقائه ، وأنكره عارفوه وكذبوه وجادلوه بجادلهم وحاجهم وغلبهم فتعرضوا له بالأذى في نفسه وذويه . فطلب لهم أن يحايدوه إذا لم يسلموا فلم يرضوا إلا أن يقاوموا رسالته ويزيعوا تكذيبه فكانوا بذلك خصماء لله ولرسوله وأعداء للمؤمنين فأنذروا بحرب من الله .

وبقى النبي معهم في هوان وضيم حتى ألهم هجرة من آمن معه الى الحبشة .
وفرح قليلا من هم المهاجرين . فكان من بقى معه في مكة يتعبدون تحت
أسقف البيوت وظلمات الغابات المهجورة . وقريش لا تهدأ عن إيذائه ومن
يعرفون منه الميل اليه ويكيدون لهم السكيد ويعرضون لهم بالضر .

كل ذلك ما كان ليضعف عزيمة النبي عن المضى في دعوته فقد أرسل
الدين يسير وحده في الناس يأخذ دوره . وشرع النبي يعرض نفسه على
قبائل العرب حال اجتماعهم للحج بمكة ليجد منهم حماية له ولأصحابه حتى يبالغ
رسالته . فلقى أخيراً أهالى المدينة (يثرب) تلك القرية التى وصفها بأنها قرية
تأكل القرى .

هذا والنبي يقص عليهم ما يخبر به الناموس الإلهى عما كان وسيكون
فيقرون بصدقه وأمانته وينكرون عليه دعوته . ويصفونه بالساحر والشاعر
والجنون وما أتى به أساطير الأولين أكتبها فهي تملى عليه .

وبدهى أن الطبيعة محدودة القوى ، وإذا استجمعت كل قواها لا يمكنها
أن تخرج شيئاً إلى أكثر مما ينبغى له فى تخلقه وما يجوز أن تبلغه فصيلته .
فلا تستطيع أن تجعل الإنسان طائراً ولا ترسل البقل نحلا . وإنما هي
تسير بالشئ فترسله لأقصى حد له بحيث لا تخرج به عن أمثاله من نوعه .

والنبي أى لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن بمكة غير نفر معدود يجيد الكتابة .
وكلهم لا يرضى أن يكون معلماً . والنبي قد شغله ضيق العيش من زمن يتمه
أن يجد النفقة على نفسه مدة الانقطاع للتعليم وما ينفع به معلماً . ولو وجد
ذلك ما وجد بمكة من يعلمه التشريع وفقه الدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ
والطب والحكمة والفلسفة وغير ذلك .

فالأمية في هذا النبي مانع وأى مانع من أن يبلغ أكثر من نهاية مبلغ
الأمين . وقد ثبت أنه فيما يعلم فوق علم المتعلمين فلا يمكن أن يكون قد وصله
ذلك النبوغ الملائكى بالطبع . ولا يجد العقل مناصاً من أن يقول أنه مخوف
بروح القدس يملئ عليه الفصل في القضايا الحاضرة والحكم فيما سيجرى بعده
ويضرب له الأمثال بمن هلك من الأمم عبرة للمستبصرين وذكرى للذاكرين .

ترك النبي مكة مهاجراً إلى المدينة . وأحاط به من المهاجرين والأنصار
لفيف رأى أن وجوده في الحياة ليس إلا أداة لتنفيذ أمر الله ونبيه . فجاهدوا
وغزوا في طاعة الله بكل قلوبهم وقواهم . ونصروا الدين وأعزوه ورفعوا
ألويته وأعلوا مكاته — هذا والقرآن يطوف بإنبائه عن الماضي وإخباره
بالآتى يقص عليه العبر بمن هلك من الأمم ويفصل الآيات . والنبي يتلو
ما يوحى إليه ويفسر منه ما لم تقو عليه الأفهام ولا تبلغه الأذهان . ويجادل به
ويناضل ويتحدى الفصحاء حتى غلبوا ، وأقروا بأنه الموجز المعجز والذي
لاتباريه قوة بشرية — وافترى قوم القول بأن القرآن من لفظ محمد ولا خلاف
لدينا في أنه لفظ محمد إذ يوحى إليه بواسطة الروح الأمين وهو الناموس .

أما ابتكار محمد لمعنى القرآن فيكذبه ما تقدم من أن محمد آتفق على أميته .
وإن كان يقرأ فلا يعقل أن يحدث عن المستقبل الذى لم يخلق ، ولا يستطيع .
بيان مجهول من الأحكام والعلوم دينية واجتماعية واقتصادية ودأية .

لوم يكن محمد أعظم سياسة وأمتن فكراً وأسدر رأياً ما بلغ مع ذكاء العرب
وصلاية رؤوسهم مدى غيره ممن تصدى لإرشاد الناس . فإنه رتب دعوته
وتخير الأقوم من طرق الإرشاد . فدعا الناس أولاً إلى التشهد لتخلو
الأذهان من الاعتقاد فى الأوثان . ثم استأهلهم بالتطهير فى أوقات ميل

النفوس إلى النظافة ومس الماء . ولو تركوا عند هذا الحد من الدين لسمّوا العمل فيه لمخالفة ذلك لمبادئ اعتادها الأعراب . ولكنه أخذ يتلو عليهم مقالات وشبه رسائل بليغة في لغة العرب وأخبار شيقة فيها قصص الغابرين للاعتبار . وأنباء تثير النفوس حباً فيما بعد نهاية الحياة الدنيا غير حكم وأمثال وأحكام في قضايا مرت فيمن تقدم وأخرى هي بين فكي الزمن وفي يدي حدثائه . وفيما بين ذلك منه لاتفرغ فاصلة أو توشك أن تنتهى عبارة من قوله إلا ذكر اسم الإله حتى لاتشغل الناس عن ذكره بطلاوة المنطق وحلاوة المفهوم . فكانوا يتناقلون قوله ويتنافسون في حفظه ويكثرون في تلاوته . حتى لقد أحبوا الخلوة له والتفرغ بالفكر في معناه . فشغلهم التبصر فيه عن كل شيء وغيره .

وإذ كثر عدد المحيطين به من مؤمنى مكة نهض فآخى بينهم واستحلفهم . على التناصر والتعاقد فكانوا كخيوط الناسج لاتقطع حتى توصل ، وشد عقد هذا التآخي بأن ضم الفقير إلى بيت الغنى منهم .

فكانوا كل ما زاد العدو في الضغط بهم ازدادوا تماسكا وترابطاً . وكثروا قليلا فخاف أن تغريهم الكثرة بمناهضة قريش وهم قليلون فبعث بهم إلى الحبشة تلك البلاد الواسعة الأرجاء والتي كان أهلها يسبحون في بحر البداوة . وفي هذه البلاد وجدوا لمتاجرهم رواجاً ومن أهلها جيرانا وخلانا .

بعد ذلك ترك الدين مع فتية أشداء أمناء يأخذ أخذه ويمجى مجراه . ونهض ليوسع لدينه السرى ويبعثه إلى التقدم بسياسة يحسبها المتعجل عقيمة الجدوى أو بعيدة الثمرة . فعرض نفسه على القبائل والعشائر يطلب التعزيد والمؤازرة ليؤدى رسالته .

واقل ما استفاد من ذلك أن صور للناس جهل قريش وخطأ عقولهم واعتصابهم لغير ما نفع . فأوغر عليهم الصدور وأبعد عنهم القلوب بالنصرة والتساند .

فلما اتسعت له صدور أهالى المدينة هاجر إليها . وبهجرتة ترك فراغاً واسعاً فى قريش ليس لكثرة من هاجر معه ، إنما لما ترك من أثر شرعته . وهذوه الأسماع من جديد قوله . فأخذت النفوس فى الناس تتساءل عنه فى الأندية وتمحص دعوته فى الخلوة فتقف منه كالذى ينشد فيه ضالته ويرغب فى رغبته . وخمر فى الأفكار فطير عظامه ونصائحه ودب فى القلوب ديب دينه فجعل فريق يستقصى شريعته وفريق يتبها لقبول قوله ويتجهز إلى اتباعه . وأنتج هذا هدوء الافكار من استنكار دعايته وتصدى رغبته . فقترت نيات قريش عنه وتراخت وحدة عصبيتهم . إلا نفر منهم الكبار وذو السطوة .

ولا مثل سياسته فى المدينة وقد كان أهلها فى طمأنينة من ضروريات العيش بشمر النخيل يقتاتون منه ويتجرون فيه . ولا يشغلهم سوى ما بين فئاتهم من خصومة وثرارات قديمة لا يفرغ الطلب بها . فما استقر بينهم قرار هذا السياسى الكبير وأخذ يمشى فيهم بالصلح والسلام ولقبهم بالأنصار فتراجعوا إلى إرشاده وأصغوا إلى عظامته فتناسوا ما كانوا فيه من عداوة واتبعوه فى زيارته لهم فتحابوا وتوادوا ، ولحق به المهاجرون من مكة فعقد بينهم والأنصار عقدة التآخى وأنزلهم ضيوفاً فى بيوت الأنصار . فكان محمد كنقطة تتلاقى عندها قلوب الطائفتين وصار كل يعنى ليرضيه . وتداعوا إلى طاعته فازداد حب بعضهم لبعض وأمسوا كأشقاء لا يفرق بينهم فارق .

وعرف أن نفوس الذين حوله قد تعالت باتباع تعاليمه من التلفت الى اللذائذ

البدنية والأغراض الجسمية ، فأرسل فيهم للامر بتحريم الخمر والميسر ، وبث فيهم اللطف بالمرأة وبين حقوقها وحدد لمعاشرتها الحدود وحث على العطف بالرفيق . فوافق ذلك ما كان قد نشأ في نفوسهم من الترفع والتعالى ، وأجابوا بكل طاعة .

وأرسل السرايا والبعوث إلى من يخاف تواطؤهم ضد دعوته فأخذ منهم الطاعة إما بالدخول في الإسلام أو على أداء جزية دائماً أو لأجل . فقص بذلك أظافر التماؤ عليه وتقطعت أوصال العصية بين القبائل المجاورة . وخسرت قريش بذلك الأمل في أن تجد ضده أنصاراً . وكانت نتيجة هذا أن امتلأت القلوب منه رعباً وخوفاً . فصارت التي لم تؤمن غير آمنة أن يصبحها جيش محمد أو يماسيها .

وكانت اليهود في بلاد الحجاز تقبض على رؤوس الأموال وترسلها ديناً مقابل ربح فاحش . وكبار الممولين منهم يغرون بعض قبائل العرب على بعض وبذلك تمكنوا من الرقاب . وجاء محمد المدينة وهي مملأة باليهود وخافوه على أموالهم فراحوا يحرصون الناس بعداوتهم ويتعقبون مضارته ويذيعون تكذيبيه ، فلفت اليهم محمد لفته وغزاهم فقضى على من ثبت وفر الباقون من وجهه إلى بلاد الشام ، وطهرت المدينة من اليهود وخلصت لمحمد ، وبهذا غيب عن قريش انتظار مساعدة اليهود بالمال والرجال .

ولما كانت مكة من كبريات العواصم في الحجاز ، وسوقاً عظيمة للتجارة ولالحج والأدب كان لها هذا لاغناء لعرب الحواضر والبوادي من زيارتها والإقامة بها أشهراً . ورأى النبي أنه إذا استحوذ عليها قبض بيده على المملكة العربية . فصوب المرمى إليها وقعد لتجارها المقاعد وساعده أن كان مركز

المدينة وسطا بينها وبين بلاد العرب والأمصار ، ولا بد لكل تجارة أن تمر عليها . فجعل لا يهدأ عن قصدتها ولا يتمهل عن مناصرة أهلها . وتالت غزواته إليها حتى انخفض صوت الشدة من قريش وأحسوا العجز فتواكلوا وتخاذلوا وذلوا واستكانوا .

وعلم محمد ذاك منهم فنهض إليهم غير متعمد حربهم . ولكنه نوى تلك الفعلة التي لم يسبقه إليها سياسياً قبله ، وهي صلح «الحديبية» الذي مهد طريق فتح مكة وأذل قريشاً . جاءهم في مئة ألف ولكن بهيئة الحاج . وأذاع أنه لا يريد حرباً فأتوه وهم بين أمل وخوف . وأبوا عليه دخول مكة إلا بعد سنين وعلى شرط أن لا يقبل من جاءه مسلماً ، ويقبلوا من أتاهم مرتداً عن الإسلام . وعلى أن لا يمنعوا مسلماً دخول مكة ، ولا الاتجار فيها ، كما لا يرد هو مكيّاً عن ذلك في المدينة . وعلى ذلك فإن قريشاً لا تنصر عليه غريماً ، ولا تضر من والاه وحالفه .

وهو صلح ظاهره كل الغبن على محمد وقومه ، ووافقهم محمد على شرطهم ، فضج المسلمون استيقاناً بالقوة والمنعة من أنفسهم ، وداروا بمحمد يريدون إرجاعه ، فأبى محمد كل الإباء .

كانت نظرية المسلمين بمعارضة الصلح حتى لاتذاع في العرب غلبتهم فيطمع فيهم أعداؤهم — أما محمد فكانت فكرته أوسع وأدق وأبعد ، فقد رأى أن اختلاط المسلمين بأهالي مكة كاف لنشر دعوة الإسلام فيهم ، وكافلاً لاسترباح المسلمين في التجارة على قريش والعرب ومسبب لحق الدماء بين الطائفتين مدة يكون فيها الإسلام قد عمل خلالها عملاً .

ورجع وقد وضع عن نفسه ثقل تحدى قريش ، وهو يعلم أنهم بجهلهم لا يصبرون

على أن يروا رجال الإسلام بينهم في عز وأمان ، بسبب هذا الصلح . فقصده
الجزء الهام والبقية الباقية من اليهود في «خير» ، والضلع القوى في مضارة
محمد وأصحابه .

وكانت يهود خيبر أبطالاً وشجعاناً ، فلم يبالهم المسلمون وقاتلوهم من كل
صوب فقتلوهم ونهبوا أموالهم . وبذلك اغتنى المسلمون واطمأنوا بفناء ألد عدو
كان أشد عقبة لتقدمهم .

وكان محمد بجانب حسن هذا الدهاء والسياسة التي لا تجتمع لمخلوق سعيد
الطالع ، فان قريشاً اعتدت على جماعة من مساكينها تسمى «خزاعة» . وكان هؤلاء
من حلفاء محمد وأصدقائه فقتلوا بعض رجالهم فنقضوا عهد محمد في صلحه لهم
وخالفوا شرطهم معه . وذهب الخزاعيون إلى محمد مستجدين مستغيثين ، فلبى
استغاثتهم ونهض لحرب قريش لثلاثة أمور : أولاً لنكثهم العهد وعدم الوفاء
بالوعد . وثانياً للقصاص منهم على ما استحلوا من دم محرم . وثالثاً
لبنجدة أحلافه وأودائه .

وسار من المدينة في مئة وخمسين ألفاً من رجاله ، وعلبت قريش بذلك
فاختفى شجعانهم في زوايا الطرق والبيوت وتشبت الكثير في البلاد . ودخل
محمد مكة ولم يجد معارضاً بل وجد مئات من رجال قريش كانوا قد أسلخوا
واخفوا إسلامهم خوفاً من الآخرين .

وبذلك استحوذ محمد على مكة والبيت فكان كائماً سار على رقاب العرب عامة
سيفاً ماضياً . وخافته العرب فأقبلوا يهادنونه ويهادونه وبيعثون الوفود إليه
بالدخول في دينه أو الخضوع لأمره .

وكان من طباع محمد الكرم والنجدة ، ومن أخلاقه الحلم والعفو ،

وحب السلام ولين الجانب . فكانت هذه الخصال من أعظم العوامل لفوزه ونشر دينه .

ذلك قول من ذكرنا ونحن موافقوهم في صحة ما استنتجوه من نعوت النبي محمد ، وإن خالفونا في صدق نبوته . وإذا كان قد توفر له من المزايا الجليلة ما لم ينله غيره . فذلك لأن العالم الانساني كان في القرون السالفة أقل عقلا وتدبرا منه في زمن النبي محمد . فلزم أن يكون كل نبي بقدر ما في أمته من درجات التعقل واندماج المواهب الجميلة في النبي ، وليس من قدرة الطبيعة أن تهيه إياها . وإلا رأينا في أبنائها مثالا له . فثبت أنها من لدن الإله وبتوفيقه ، فنبوغه بدون شريك ولا في النادر ، يفيد أن به سر آلم يكن ليودعه غيره . وكثرة المزايا تقتضي الأفضلية وسير دعوته بحالة سياسية ، يرجع الفضل فيه إلى الله وحده حبا منه لهداية خلقه .

وفي هؤلاء نفر يتساءل عن معجزات النبي ، وينسك على التواتر آياته ، ويصدق ما ورد من معجز لموسى وعيسى ، على أن ما أتى به النبيون قبله فرط وانقرض ولم يبق إلا خبره في الأسماع . ولكن القرآن باق لا يزال يقرؤه الناس ويشترعون اليه ويعترفون بأنه المعجز لمن تحداه . وحسبنا به للنبي محمد معجزة تتجدد مع الزمان ولا تتأثر بالحدثان .

وثبت إعجاز القرآن للفصحاء والبلغاء ، وشهادة من قرأه وتفهم معانيه له بأنه ليس من كلام البشر ، وقد جاء النبي يقرؤه على الناس ويستهد بهم به وينير لهم الطرق بأضوائه ، وطواف القرآن به يؤيده وينصره ويهذهبه . ويعلمه ، ثبوت ذلك للقرآن إثبات للنبوة ، ودليل حسي على صدق رسالته .

وما جهل أن الرسالة للأنبياء (١) أوامر ونواه تعبدية (٢) وأحكام
تشريعية (٣) وحكمة للتصرفات البشرية . جميعها يكفل العمل به حفظ كيان نوع
الإنسان في ذواته وفي نظمه الاجتماعية .

والرسول رجل حر يهيئه الله منذ وجوده ، فيوحى لطبعه بتجنب ارتكاب
الكبائر . ويحيطه بأسباب تبعده عن كل صغيرة من شأنها ضرر الأغيار ، ويخلق
في نفسه شديد الرغبة بإثبات كل صالح . وخاصة في الأخلاق الصدق والأمانة
والأدب والرحمة .

فاذا بلغ سن الأربعين واستكمل هدوء ثورة الطبع فيه . وتم خمود الميل
منه الى المطامع البشرية . واطمأنت اليه النفوس اجتباه الله فنزل عليه وحيه
بهداية الخلق إلى ما يصلح شأنهم في دنياهم وآخرتهم ، والرسول باعتبار أنه
إنسان لا يخرج منه كونه رسولا عن قيود البشرية يصيبه المؤلم من عادات
الطبيعية كالجوع والعري والتعب والهزال والسقم ، وليس بممتنع أن يصاب
بضر أو أذى أو جرح ومثله . بما أن اختياره للرسالة لا يفصله من سلسلة
المخلوقات ولا يزرحه عن قبول الحال فيمن حوله . بل هو كواحد من
من الناس يتلاقى والحوادث فينال النصيب المقدر له .

وليس في مقدور الرسول ولا باختياره أن يقف التبليغ أو يؤجله ، فضلا
عن ترك أدائه لأن اصطفاؤه لم يكن باختياره بل بإرادة الله ، وإرادة الله
لا تعارض . وليس له أن يختار فيما ينزل عليه بل هو مجبور على تبليغ
ما يوحى إليه .

والوحي اسم لأوامر الله ونواهيه بكل طرق التنزيل التي هي (١) الإلهام
(٢) الرؤيا (٣) وساطة الملك .

والوحي بأنواعه تشريع للرسول وللأمة (١) بالفصل فيما لا تدرک حقیقته (٢) وفيما التبس العـدل فی قضیته (٣) وبيان لما یتردد العقل فی الصواب منه .

وبصفة الرسول بشراً ؛ له أن یختار فیما لم یستوقفه أمر من الوحي عنه ، وهو (أی الرسول) بطبع تهذیب الإله له لا یخرج فی فعله عن المباح ، بل لا یستطیع أن یخرج عنه .

وترک الحرية للرسول فی التزوج بأكثر مما أبیح للسلم فمن قبیل السياسة اللازمة للدين ، فقد یتزوج الرسول بامرأة (١) مكافأة علی أن احتفظت بدينها بین فتن الجاهلية وضر المشرکین لها (٢) أو استمالة لأهلها إلى مساعدة الدين . (٣) أو لیكف شر ذویها عن المسلمین .

وهذا النبی محمد لم یر أكثر زوجاته قبل التزوج بهن ، وفيه الدلیل علی أنه لم یتزوج رغبة فی المرأة ولا حباً فی الزواج .

وفي الناس من تحدث عن الخلافة بعد النبی ؛ یرید أنه كان الواجب أن یشیر النبی إلى ترتیبها ، ویوصی علیها لیلزم الناس بها . وقد علم أن خلو القرآن من النص إليها مستلزم لتجنب النبی الكلام عنها . والنبی لو وصی بها صراحة لكان قد أثار فی الناس بعده فتنة لا یطفأ لهبها . حیث یدهب الناس أحزاباً ویتمزقون فرقا وشعوباً ویتنافر اعضاء الدين وناصروه ، فتعطل دعوته . وكان لا یصل الینا من شریعته خبر .

علی أن النبی قد وصی بالخلافة ولكن بحال غیر صریح بأن أمر وألح بأن یصلی أبو بكر بالناس بدله ، ولبت كذلك ثلاثة عشر یوماً قبل وفاته .

وقد صلى النبي قبل ذلك مؤتما به مرات ، ولذلك قالت الأنصار في بيعته
أبي بكر : رجل اختاره النبي لديننا أفلا نختاره لدينانا .

ولم يزد النبي إيضاحاً في ذلك ، اعتماداً على أنه قد ترك للدين من أصحابه
حفظه أمناء أذكياء يستحيل اجتماعهم على ضلالة . وفيما بينهم القرآن
يأمرهم بالشورى فيما يعن لهم من أمور الدنيا . وما كان بالجديد فيما يعلمهم
فينسوه ، وقد اختبروا فوجدوا أهلاً للقيام بأوامره ونواهيه .

واختياره للخليفة الأول وترك غيره يدل إلى أن أمر ذلك مفوض إلى
اختيارهم — وقد اجتهد أبو بكر فلم يجد من توفرت فيه الأهلية بعده غير عمر .
فاختاره وفي الناس من هو أقرب إلى النبي وأعلم وأشد عصية وأكثر رهطاً
منه ، وفيهم أيضاً القادرة على أن يأبوا على أبي بكر رأيه لو أنهم رأوا فيه
خلاف الحق .

وتردد عمر في الناس فترك الأمر شورى بين جماعة من المنصحين العقلاء
المخلصين ، وفيما ذكر الكفاية عن الخلافة .

ولاحظ بعضهم أن اختيار القضاء في عهد النبي لا يخلو من نقد ، مستدلاً
بقول علي بن أبي طالب : لقد بعثنى النبي على القضاء في بلاد اليمن ولم يكن
لي سابقة خبرة بالقضاء .

وهذا قاله علي من قبيل الفخر بثقة النبي به ، وقد درس على النبي العلوم
كافة ، واختار النبي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري وغيرهما ، بعد أن
تشبعوا من محاضرات النبي ووصاياهم مدة لا تقل عن العشر سنين . وجميعهم
في سن الرجلة — فأى جامعة كجامعة أستاذ التعليم فيها النبي محمد ؟ وأى
مدة تكفى في نظر الناقد لتعليم النظر في القضايا أكثر من عشر سنين وخاصة
في أذكياء فطناء ؟ وأين ما ولد في نفس هذا الناقد من عدم استعداد أولئك الذين

اختارهم النبي للقضاء ؟ ومن ذلك الذي يتقن تمرين المتخرجين غير النبي ؟ . ومن هو العدل الذي يحسن اختيار المتعلمين غير النبي ؟ . ألهم إنها قولة نطق بها الشيطان على لسان قائلها .

وفي المؤخرة حدث ينكر شرف أجداد النبي ، وجوابه بجانب صماخه لو أصغى . ذلك أن النبي لما قام بدعوة الإسلام أفرج الطريق لسائليه ، وأوسع الصدر لمعارضيه . وقد حشرت اليه وفود العرب بين ناقد ومناضل ومعارض ومفاخر يراجعونه في دعوته ويباحثونه في شرف نسبه ، وقد ملأت مناقشاتهم له ومنازعاتهم لشريعته ألوف السكتب ، وانتشرت على التوالى وبلسان التواتر حتى لا يكذب من قال إن ذلك مذاع بين طبقات الشعوب من عهد ظهور النبي إلى اليوم . وما سمعنا من أنكر عليه شرف آبائه وسيادة أسلافه . فاذا كان القرشيون أصحاب الشأن وقد عرفوا بالتعصب للرأى وشدة الدفاع عن المقصد . وهم من الشجاعة والجرأة بالمكان الذي عرفت وخاصة في مقام المناظرة . قد أطروا أجداده وأثنوا على شرهم خيراً . فإنهم يكونون بذلك قد حكموا على هذا المنكر وأمثاله بمخالفة إجماع الموحدين والعقلاء نسأل الله الهداية .

التاريخ القديم

حديث التاريخ

التاريخ يمر على آلاف الأدهار ويروى حوادثها في أساطير ، فقد يطوى ملف جيل بجذافيره ، أو يكتفى بالإشارة إلى النذر اليسير منه . ويطيل القول عن حادث . أو ماله علاقة بحادث ، ويذكر جماعة في عرض البحث عن جماعة . ونقرأ في غرض الاستقراء عن واحد . ويتلقت الأخبار فيثبتها على علاقتها ليفسح للبصراء مجال الحكم عليها . وخاصة إذا اعترضته الأبعاد الزمانية القصية النهايات التي يقصر فيها امتداد جبل الرواية . وتبلغ التاريخ كقطعات متضادة السياق متجافية المقاصد لا قرابة بينها ولا اتصال . ولا يجد البدن من إثباتها تخلصا بالمطلع من غموض التلخيص أو البحث . وحتى لا تقفه الحيرة بين التخصيص والإهمال .

وكذلك هو لا يروى خبر المجرد غرابة فيه فقط بل ولا لأنه إما سارّ جداً أو صارّ جداً — أو لأنه عقدة يقف عندها الآيب ويتعرف بها الذاهب . وشرطه أن يكون قد نال الحد الأقصى في الإذاعة والتداول . ولا يبلغ مدى هذا خبر إلا كان له في الناس كبير وقع ، وزمن بقاء كل خبر في أيدي التداول بحسب ماترك من أثر . فالتاريخ حكاية تصعدت القلوب بمسرة أو حسرة . وسبب الخلاف في عبارة الرواية يرجع إلى حالة تأثر نفوس الرواة من الخبر أو له . وإلى تصرف الظروف الاجتماعية والسياسية وتوالى صروف العصور والأزمنة ، والخلاف في العبارة لا يستوجب التشكك في الموضوع .

مكة والتاريخ

هذا هو التاريخ يسأل فيحدث ولا يمل ؛ عن وجود العمران بمكة قبل الإسلام بألفى سنة . وأنها كانت مقر الحضارة العربية وملتقى الأنظار ، والجامعة الشاملة لسكرام العرب . وينبوع الشرف ومصدر النبل وكرائم الأخلاق . وبها السكبة المسكرمة الموموقة من كل عربى بالإجلال والإعظام . ولكنه يورد متحفظاً وباسان الحذر أسماء أقوام كانت تسكن مكة مسنداً كل عشيرة إلى كبير من عمد التاريخ . كالذى يستملى من وجود المشاهير أسماء العشائر ، وإن قبل ألفتى سنة من ظهور الاسلام أى قبل المسيح بألف وأربعمائة سنة تقريباً لكثير على التاريخ ، وكل تاريخ لا يستطيع أن يثبت شيئاً نقياً من الزيف . ومهما لقبول العقل له فى كل زمان ومكان . ولا مثل الجيل الحاضر حيث كثر ما يسمى نقداً وفلسفة ؛ وهو بالحقيقة تبرم وعنف سببهما اختلاج الذوق واضطراب عصب الرأس - ولو أن التاريخ روى أخبار قوم لم يبق الزمن لهم أثر خبر بعد روايته لما وجد استماعاً ، ولكن بقاء ذكر العشائر مجدداً فى فم التاريخ وعلى رأسه شهرة كبارها سند له على صدق روايته .

والناظر فى تاريخ العرب قبل الاسلام بأكثر من عشرين حقبة لا يكاد يبصر شيئاً بين ظلمات الجهالة وتقطع الصلات العمرانية بالأبعاد الصحراوية . وكدورة ظل ما كان يقع من خصومات وحروب سفكت فيها الدماء - وللتاريخ كل فضل إذا هو حمل النيا أخباراً إجمالية التدرج بتدبيرها من الواطىء الغابر والتمية الصرف الشبيه بالغيب المحض ؛ إلى إثبات حياة أقوام كادت تكون مجهولة ، ولقد كاد يكون من المستنكر أن يفاجىء بذكر كبار التاريخ محتزلاً بدون سبق سبب له .

العصور الغابرة

من الأوليات السببية المجملة عن أقصى ما وقع تحت نظر التاريخ ؛ أن قد ولى أمر البيت بمكة مضاض بن عمرو الجرهمي الأكبر من ولد بنات ثابت ابن إسماعيل وكان ملكاً على قبائل وعشائر تعمر مكة . وهو الذى حفر بئر زمزم . ولأمر ما اعتزل قومه قبل موته وأهملت زمزم فطمرت وذهب أثرها . وورث الهيمنة على مكة بعد هلكة أعقابها دهوراً لا ينازع جرهماً منازع ابتعاداً من أن يحدث بمكة عداً ، ولبثت جرهم مئات القرون وهى على حكم مكة مطاعة من سكانها نافذة السكينة حتى فى أضيافها وزوار البيت فيها . حتى إذا تم أمرها وارتفع طائرها اغترت بطول خضوع العرب لها ، وبغت وظلمت من يدخل مكة من القصاد والحجاج والتجار ، واستأثرت بالأموال المهداة إلى السكينة ، وحادت عن سنن العرب ومألوفاتها وظهرت بالعتو والفساد فنشأ بها وباء الرعاف (دم الأنف) فأقنى من نوع السكحول فيها ما يربو عن ثمانين كهلاً فى ليلة واحدة . وكان على الرجال والشباب أشد وظأة . وشعر مجاوروهم بضعفهم ، وكانت جرهم أكثر حيفاً وجوراً على خزاعة ، فنهضت خزاعة لحربها بقيادة أميرها عمرو بن لحي وهو ابن بنت عمرو بن الحرث ملك جرهم يومئذ . وخزاعة أكثر قبائل مكة عدداً وأقواها شوكة وأسمعها كلمة . ونشبت بينهما حرب طاحنة هلك فيها أكثر جرهم ورأى الباقون الغلبة عليهم فقرروا حزانى مكروبين مع الملك عمرو بن الحرث إلى بلاد اليمن ، وهو آخر من ملك مكة من جرهم .

ملوك مكة القدماء

ذلك خلاصة الشق الأول من الدور الإجمالى المجهول ، وبعده ابتدأ الشق

الثاني باستيلاء خزاعة على حكومة مكة والبيت ، وكان كبير خزاعة عمرو بن لحي وولى أمرها ، وهو رجل ذو عقل وكرم مع صلابة فى الرأى ومضاء فى العزيمة ، بلغ فى العرب من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية ، وهو أول من أطعم الحاج بمكة شحم السنام على الثريد ، وذهب شرفه كل مذهب وصار قوله ديناً متبعاً لا يخالف ، حتى تداول القول ، بأن صار عمرو رباً لا يبتدع بدعة إلا اتخذها العرب شرعة .

وكان فى موسم الحج يطعم الناس ويكسوهم . نحو عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة ، إلى أن خرج فى بعض أموره إلى الشام ، فرأى بأرض البلقاء قوماً من ولد سام يعبدون الأصنام ، وأخبروه بأنهم بواسطتها يستمطرون فيمطرون ويستنصرون فينصرون .

ورجع الى مكة وقد اختمر ذلك فى نفسه ، وجمع إليه عقلاء قومه وفاوضهم فيما خطر له من أن الله يجب أن ينزه عما تتصف به الحوادث ، ومن ذلك أن لا تبلغه دعوات البشر ، فوافق رأيه ضعفاً فى نفوس كبارهم ، وأقروه عليه وأذاعوا اعتقاده . فأفضى هذا بالجميع إلى التعطيل ، ودخل موسم الحج ودعاء الناس : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك » فأمر بتعديل هذا إلى قول : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو ملكك » وسأله قومه فى ذلك فقال : « إنه يملك ذاك الشريك . فلم ينازعه ، وتبعه العرب فى رأيه ، فكانوا يوحدون الله فى التلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده ، وأرسل عمرو فأحضر من الجزيرة صنم هبل ونصبه فى بطن الكعبة ودعا إلى عبادته وتعظيمه — فكان الرجل يقدم من سفره فيبدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت ويخلق رأسه عند هبل ، وبعث إلى جُدَّة فأتى

بأوثان كانت تعبد في قرون قديمة وهى ، وَدُثُوسُوع وَيَغُوثُ وَيَسْعُوثُ
وَنَسْرُ ، إلى صنمين كانت العرب تتبرك بهما وهما ، أساف ونائلة ، ووضع الجميع
حول السكبة وصلب إليها فقلده العرب ، وكان يخبر قومه بأن الإله يشقى بالطائف
عند اللات ويصيف عند العُزَّى ، فكانوا يعظمونهما ويهدون إليهما مثل
ما يهدون إلى السكبة ، ومن ذلك الوقت انتشرت عبادة الأصنام ، وزاد
غرور عمرو فأحل أكل الميتة . واحتج على قومه فى ذلك بقوله : « كيف
تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ! » فوافق بعض . ومنعه الكثير
استقذاراً ، وعاش عمرو هذا حتى رأى من ولده وولد ولده ألف رجل ،
وتداول الحكم فى مكة أولاده وأعقابها ، وكان آخر من حكمها من خزاعة
حُليل (بضم الحاء) الخزاعى كما سيأتى :

أجداد محمد

عدنان

والذى عليه الإجماع أنه فى خلال دور جرهم ، وقبل أن تبدأ الحركة بظهور
المسيح بعشرين قرناً كان قد ملأ الأسماع حديث عدنان بن أد من ولد اسماعيل .
وهو أحد أشياخ مكة وسادات البيت ، وأكبر عقدة عدية فى التاريخ العربى ،
والىه يرجع شرف النبلاء فى مكة ، وأول من رغب عن استعمال اللفظ
المستقل من لغة قحطان ، وإليه ينسب البدء فى تحويل اللغة العربية القحطانية
إلى لغة الحجاز وما والاها ، وأول من وضع أنصاب الحرم وكسا السكبة ،
وكان يأنف أن يكون فى عبدة الأوثان ويقول : « أفأكون أذنًا (ذا أذن)
والإله أصم ؟ » وكان فى أوائل المقربين من ملوك جرهم ، ومن ذوى رأى

الموقر بينهم ، وكان مهاباً في العشائر والقبائل ، وهو أول من بدأ بوضع صور رموس حروف عربية مفرقة .

وكان عدنان معاصراً لبعض أنبياء بني إسرائيل بعد موسى ، وكان اليهود يبتعدون عنه ويتجنبون أن تكون لهم به صلة ، لما يظهر من بغضه لهم ومقته إياهم .

معد

وورثه في شرفه وسؤدده ولده معد بن عدنان ، وكان أميراً نبيلاً وسيداً كريماً على النفس شهماً شجاعاً وقائداً عظيماً ، وكان شديد التمسك بمألوفات العرب لا يصله خلاف منهم إلا نهض لقمعه بالنصيحة والسيف . وكان لا يعتقد بوساطة الأوثان ، ولا يرى في عبادتها غناء وكثيراً ما كان يقول مامعناه : إن الله أقرب إلى من نفسى ولا يستوسط إلى قريب . ولذلك كان لا يوجد مع القوم في اللياذ بها .

وفي زمنه ظهرت فتنة بختنصر البابلي ، وقد غزا بجيوشه العرب فتعدى معد إلى مقاومته وثبت حيناً في دفاعه ومناصلته ، ولسكن خذلته جرهم وأحلافها وتراجعوا متحصنين بالجبال من بختنصر ، فغلاهم معد وهاجر بأهله مع أرمياء النبي إلى الشام ، وأقام في جواره زمناً وفي نفسه بغض بني إسرائيل ، حتى إذا هدأت فتن بختنصر وخمدت ثورتها بعد هلاكه عاد معد إلى مكة ، ولم يستقر به المقام وعاد إلى شن الغارات على اليهود في بلاد العرب ، مجدداً سنة أبيه بمناصبتهم العدا ، وانتصر عليهم في وقائع متعددة ، وحصرهم في نواح خاصة حتى لا تقوم لهم قائمة .

نزار

وولى أمر القوم بعد معد ولده نزار ، وكان أجمل أهل زمانه ، وكان كثير التفكير حكيماً مدبراً ميالاً إلى السلم والهدوء محباً للعزلة ، حافظاً لأنساب العرب وأخبارهم وعاداتهم عارفاً بمنزلهم ، وهو الذى أكل صور حروف العربية مفرقة ورسمها بجمعة ، وأول من كتب الكتب باللغة العربية ، وكان محبوباً فى قبائل العرب كافة ، وخاصة المقيمة فى مكة ، وصاحب رأى فىهم ، وكان يستنكر أن يسجد لصنم .

مضر

ومن ولد نزار مضر ، أخذ مقام أبيه فى قومه ، وكان جميل الصورة لا يراه أحد إلا أحبه ، وحسن الصوت بدرجة فائقة وهو أول من وضع الحناء للإبل ، وزاد الناس فيه — ومن قوله : « من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة ، وإن خير البر أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروها ، فاصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق الناقة ، (وهو ما بين الحلبتين) ، وكان ينفر من عبادة الأصنام ، ويرى العرب محتشدة حولها فيقول : « إن لم يكن الآله يسمع ندائى فأنا أكمل منه خلقاً ، ولا يعبد الكامل ناقصاً . وكان ودوداً لقومه ، كثير الخير لقصاده معظماً من جرهم ملوك مكة ، مترفعاً عن الرغبات المستزلة .

الياس

وورث مضر الياس سيادة القوم ورياسة الأشراف ، وكان ذا عقل وافر وحكمة بالغة ، وهو أول من أهدى البدن (النوق) إلى البيت ، وقد

عظم أمره في العرب حتى كانوا يدعونه بكبير قومه وسيد عشيرته ، فلا يقطعون
أمرأ دونه ، وكان في العرب كلقمان الحكيم في قومه يحتكمون إليه ويرجعون
إلى رأيه ، ويتحاثون على تنفيذ أمره ، وكان خطيباً فصيحاً قوى الإقناع ،
ويرى الناس حول الأصنام فيمتعض قائلًا : « الويل لكم ! إنه إن جاز أن يكون
الإله لا يسمع ، جاز أن يكون لا يعلم ، وإذن فيقع في ملكه ما لا يريد »
وهو أول من عرف أنه مات بمرض السل في العرب .

مدركة

وابن الياس مدركة ، حاز من الفضائل أجلها وأسمها فكان ذكياً فطناً
لا يخطئ رأيه ، ولا تخيب فراسته . حتى لقد ظن أنه يعلم الغيب ، وكان وديع
الأخلاق لين الجانب حلو الشئائل ، تتحدث العرب بمحامده ، وكان كبير
المروءة سخياً ، ويدعى في المواسم إلى مساجد الأصنام فيقول هازئاً :
« مالكم ! إنما تبتغي الوسطة لغائب أو غافل ، ولئن كان الإله أحد هذين هلك
الوسطة والموسوط » .

خزيمية

وولد لمدركة خزيمية ، شيخ العرب وأبو كثير من العشائر ، وكبير مكة ،
ومن رؤساء البيت كان سهلاً متواضعاً ، وكان مزواجا وغنياً محباً للتجارة ،
يبحث قومه على العمل فيها والاسترباح منها ، ويساعد من ماله المشتغلين بها ،
وكان له خيمات من عيدان الشجر تبنى له عند ملتقى الطرق لاستقبال الضيوف ،
وكانت العرب تقصده في المواسم وغيرها للاستعانة بماله ورأيه ، وقد عرف
أنه لم يسجد لصنم قط ، ومن قوله : « إني لأحرق إن التمس لمن يعلم وسطة
من لا يعلم » .

كسنانة

وأكبر ولد خزيمة كنانة - كان شيخاً وقوراً عظيماً القدر تخير مكارم الأخلاق وأشرف المبادئ . وكان متعظفاً مجاملاً ، وكان مستودع أسرار أمراء العرب وموضع ثقة زعمائها . تحبب العرب لعلبه وفضله ويقتدون بعقله وقوله - ويتحاكمون إليه في مواضع الخلاف . وكان يأنف أن يأكل وحده . فاذا لم يجد أحداً أكل لقمة ورعى لقمة إلى صخرة توضع بين يديه أنفة من أن يأكل وحده . وإذا مثل عن عبادة الأوثان قال : « إن الله أشد غيرة من أن يرضى بواسطة بينه وبين خلقه » ومما يؤثر عنه قوله : « رب صورة تخالف المخبر قد غرت بحمالها واختبر قبح فعالها ، فاحذروا الصور واطلبوا الخير » .

النضر

ولكسنانة ولد النضر ، وفي أيامه بدأ نفور العرب من جرهم لما ظهر من بغيتهم واعتدائهم . واتجهت الميول إلى النضر يجتمعون إليه ويلتفون حوله . وكان النضر عظيماً في نفسه مهيباً في العرب جميعها مسالماً جرهم وسواها . وكان حراً صريحاً سموحاً مترفعاً وكان أميراً في قومه وحاكماً في القبائل غيرهم . وكان لا يرى خصومة أو خلافاً في جماعة إلا اجتهد في إزالته . وبواجه الرجل من عشائر مكة فيلج به حتى يقف له على حاجة فيبادر بقضائها . ويعتبر على من لم يكلفه بأمره أو يعلم أنه التمس حاجة من غيره . وكان يقضى الليالي مع أضيافه في بيت خاص فلا يأتي أهله إلا نادرة . وكان إذا رأى الناس حول الأصنام انصرف . ويسأل فيقول : « أخص

أوصاف الله الألوهية ، ولا أستطيع أن أشرك معه غيره في أخص
أوصافه .

مالك

وللنضر ولد مالك . وهو سيد عشائر النضر وكنانة — وخزيمة ومدركة
وكبير أمراء السكبة . وفي أيامه سقطت حكومة مكة من جرهم . وأخرجتها
خزاعة بمساعدة العرب من مكة ووليتها خزاعة . وعشائر عدنان أقوى العرب
عصية وأشدّها منعة وصوله فكان مالك أوفر جاهاً وأكثر رهطاً وأنفذ أمراً
حتى في خزاعة . فكان ملكاً بآتم معاني الملكية . وكان شديد الغيرة على اسم
العرب . فاتخذ داراً ينزلها القصاد والسفار والأضياف والحجاج وكبار القبائل
من مضر يأتيهم بالقرى ويزيد في إكرامهم . فتعاورون ما يكون قد استجد
من العادات والمؤلفات . وكان قارئاً كاتباً حافظاً واعياً ما يبلغه من الأخبار .
وكان يحتقر الوثنية ويقول : « لو كنت الذي يرى القرب من الله بواسطة
لاتخذتها من آباءى » .

فهر

وولد لمالك ولده فهر . وهو قريش وإليه تنسب قريش . ولقب به
لأنه كان يقرش (يفتش) على حاجة المحتاج فيسدها بماله . وعنه أخذ بنوه
عادة بحث أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم — وكان موقراً في العرب
محبوباً منهم مفضلأ لديهم لعقله وعلمه . وإلى زمنه كان ائتلاف العرب لم يتم
لخزاعة . وجاء حسان بن عبد كلال بجيش حمير وغيرهم لهدم السكبة ونقل
ما بها من الأحجار المسكومة لبنى بيتاً في اليمن يحج إليه الناس . ونزل بنخلة

فأرسل فهر السكتب إلى العرب ، فاجتمع لديه كثير القبائل . والتقى بجيش حسان ، وجرت بينهم حرب هائلة انهزمت في نهايتها حمير ، ومن انضم إليها . وأسر حسان فبقى في أسر فهر ثلاث سنين . وافتدى نفسه بمال كثير ، وخرج فأتى طريقه بين مكة واليمن . ومن يومئذ علا أمر فهر ، وهابته العرب وزادت تعظيمه . وكان ينظر إلى الناس مجتمعين إلى الأصنام فيقول : « كل ماتحت الشمس إنما خلق من أجل الإنسان ، فبحسبكم أن فضلتم عليه الحجر . ولا ترقوا فتعدلوا الحجر بالإله » .

غالب

وولد لفهر غالب . وكان شجاعاً مقداماً على النفس ، تخشى العرب سطوته وتخافه . وكان مع هذا جواداً سخياً كثير الخير ، لا يرى في ماله ميزة لنفسه عن سواه ، كبير النجدة أجاز جوار مواليه وخدمه . واعتبر نباح كلابه للقتاد ذمة وجواراً . وكان لا يأكل إلا مع ضيف ، فإذا لم يجد من يؤاكله امتنع عن الأكل ، وكان يستنكر عبادة الأوثان ، ويقول : « إني لا أكبر أن يغتبر وجهي بالسيجود لغير خالقه » .

لؤى

وأكبر ولد غالب لؤى « كبير شيوخ مكة وسيد أمراء السكبة ، والمتقدم عليهم . اشتهر بالذكاء والفطنة وسمو المدارك والرزانة . حتى قيل عنه « كأنما لا ينطق بالكلمة إلا بعد استشارة » . وقالوا : إن لسان لؤى في عقله . فكانوا يترقبون قوله ليتفألوا به ، وليرسلوا ما يقوله حكمة ومثلاً . فمن قوله : « الحياة عارية فلا تبالوا سلبتموها قهراً أو باختيار . كل من حولكم له نصيب فيما

بيدكم حتى الحيوان ، وظلم أن تحجبوا المستحق نصيبه — إننا لم نختر على أى صورة نخلق . فبأى حق تتخير ما نرزق ؟! — جددوا الآمال إن بليت ، وابعثوا الهمم إن ونيت ، ولا تتخاذلوا تذهب ربحكم ، وتناصروا تنهصعابكم . إن الله ليبغض المتجبر وإن كان محقاً ، وإنه ليحب أن يسأل فى الرخاء فتوسلوا إليه بالتقوى .

كعب

وابن لؤى كعب . جمع إلى النبالة حكمة نادرة وفصلا ومروءة ، طار ذكره بالمحامد فى الغرب ، وأخذ من الأفئدة المكان الأمكن . وله المجالس المعروفة والخطب المملوءة بالعظات البالغة والأفكار الشاملة . وكان يجتمع إليه القوم يوم العروبة (وسمى فى الإسلام الجمعة) فيعظهم . وهو أول من قال — أما بعد — ومن خطبه : « أما بعد فاسمعوا وافهموا ، وتعلموا واعلموا . ليل ساج ، ونهار شاج ، والأرض مهاد ، والسماء بناء . والجبال أوتاد . والنجوم أعلام . والأولون كالآخرين . فصلوا أرحامكم . واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم . الدار أمامكم . والظن غير ما تقولون . . وكان مصلحاً عظيماً وقيماً أميناً . لم يقم فى خلاف إلا أصلحه . ولا ترك خصوماً إلا على وفاق . يتباعد عن محشر القوم فى العبادة قائلاً : « مالى وحدث الغفل ، وبدعة البهل . إنما يستبق المغاور . من جهل المصاير . » وقد جزعت العرب لموته فأرخوا به .

مرة

ولكعب ولد مرة . ورث أباه فى السيادة على القوم والإمارة على السكبة . وغلافى سنن آبائه . فالزم بالإجتماع يوم العروبة ، وحث على صلة

الرحم وحرص على القروض المؤتمنة وكفلها . ورغب بشدة في إقراء الضيف ، وضمن ما ينفق له . وجب في التجارة على أن يغرم من ماله الخسارة . وكان يبغض أن يحضر ظلامه ، ويخاصم أهله عن المظلوم والضعيف وكان معظماً في خزاعة ، ترجع إليه في العظام ، وكان يستهزئ بعبادة الأوثان ، ويدعى إليها فيقول : « إني لأكرم وقتي من الضياع في مالا غناء به » .

حكيم

ولمرة ولد حكيم . المعروف بكلاب (لكثرة اقتنائه لها لأجل الصيد) وفي زمنه وجدت الحركة الفكرية بظهور المسيح ، وذاع خبر رسالته في الحجاز وبلاد العرب ، وكان حكيم سيداً وشجاعاً ، ومقدماً على الأخطار ، وكانت العرب جميعها تنق حدوث ما يغضبه ، وكان منصفاً من نفسه شديد آفي الحق يعز الفقراء والضعفاء ، ويعتز بهم ويعني بقضاء حوائجهم . ويرى القوم يتنادون إلى المعبد ، ويقول : « بدعة ضلال ، أورثكم الخبال ، وستفضي بكم إلى الوبال » .

قصي

ولحكيم ولد قصي . وبهذا سمته أمه ، واسمه يزيد وكان حكيم والده تزوج أمه من بني كلب ومات وقصى فطيم . فرحلت به أمه إلى بني كلب وهناك تزوجت برجل يدعى حزام بن ربيعة من قضاة ، وتربى قصي في بيت حزام حتى شبوبته . ووقع بينه وبين رجل من آل زوج أمه شر أفضى بقصى إلى مناضلته ، فغلب قصي الرجل ، فغيره هذا بالغربة . وقال : « ألا تلحق بقومك وبلادك ، فإنك لست منا ؟ » فرجع قصي إلى أمه فقالت له : « إن بلادك خير من بلادهم ، وقومك خير من قومهم ، أنت أكرم أباً منهم . أنت ابن

حكيم بن مرة . وقومك بمكة عند البيت الحرام تفد اليهم العرب . فأراد قصي الخروج إلى مكة ، فقالت أمه : « لا تعجل حتى يدخل الشهر الحرام وتخرج مع حجاج قضاة ، فإنى أخاف عليك فتاك العرب » فلما شخص الحجاج سافر قصي مع قضاة . وكانوا قد عرفوا فضله وشرفه ، فأكرموه وقدموه عليهم . وقدم مكة وتعرف إلى قريش ، فأجلوه وعظموه وأنزلوه منزل أبيه . فساد قومه وعلت محامده ، فتزوج بنت حُليل (بضم الحاء) الخزاعي ملك مكة والسكبة . فجاء منها بأولاد وكثر ماله .

ومات حليل وعهد بأمر مكة إلى ولده أبي غبشان (بضم الغين) وكان أبو غبشان بعقله دَخَلَ فباع قصياً ولاية مكة ، وأمر البيت ، بئمن انتقده منه ، ولم توافق خزاعة على أن يلي أمر البيت غيرهم . فحذرتهم قريش الظلم والبغى وأن قصياً أحق بالبيت لأنه من ولد إسماعيل . فأبت خزاعة . فدعت قريش كنانة إلى نصرة قصي . وانضمت إليها قضاة جاء بها أخو قصي لأمه ، واقتتلوا قتالاً شديداً كثر فيه القتل والجراح في الفريقين ، وكان في خزاعة أكثر . فقام الشيوخ من الفريقين وتداعوا إلى الصلح ، واتفقوا على أن يحكموا عمر بن عوف ، وكان شيخاً معروفاً بأصالة الرأي ، فواعدهم على الاجتماع بفناء السكبة في اليوم التالي . واحشد القوم ، فقام عمر خطيباً وكان من قوله : « ألا إني قد شدخت (كسرت) ما كان بينكم من دم تحت قدمي ، فلا تباعة لأحد على أحد في دم ، وقضيت لقصى بأنه أولى بولاية مكة » . فوافق الجميع على حكمه . ومن يومئذ أجليت خزاعة عن البيت ، وصار قصي ملكاً في مكة ، وأرسل السكتب تبعاً لجمع إليه فرق قريش بعد تفرقها في البلاد ، وقسمها اثنتي عشرة قبيلة . (ولذلك سمي بجمعاً) . وقصى أول رجل من كنانة أصاب

ملكا . فلما حضر الحج قال لقريش : « قد حضر الحج وسمعت العرب بما صنعتم ، وهم لكم معظمون . ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام ، فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجاً » . وفي أوان الحج جعل قصي ينحر على كل طريق من طرق مكة جزوراً ، ونحر بمكة فوضع اللحم على الثريد ، وسقى اللبن والماء المحلى بالزبيب . وهو أول من أوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة . وحاز قصي شرف مكة كله . فوزع على ولده وظائف البيت . ومن قوله : « من أكرم لثيماً أشركه في لثومه ، ومن استحسن قبيحاً نزل إلى قبحه ، ومن لم تصلحه السكرامة أصلحه الهوان ، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان ، والجور هو العدو الخفي » . ثم قسم نواحي مكة على أقسام قريش فسمى من سكن البطاح منها قريش البطاح ، ومن سكن الظواهر قريش الظواهر (والأولى أشرف) وأمرهم أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم ، حول البيت ، وقال لهم : « إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ، ولم تستحل قتالكم » فبنوا حول البيت من جهاته الأربع ، وجعلوا أبواب بيوتهم جهته ؛ لكل بطن منهم باب ، كباب بني شيبه وباب بني سهم وباب بني مخزوم وباب بني جمح . وتركوا قدر الطواف بالبيت ، وبني قصي دار الندوة ، وهي أول دار بنيت بمكة . وكان بمكة من العضاء شجر كثير (كل شجر يعظم وله شوك واحدها عضاء) فهابت قريش ما جاء منه في بيوتهم ، وشكوا ذلك إلى قصي فأمرهم بقطعها . فأبوا وقالوا : نكره أن ترى العرب أننا استخفنا بحرماننا — قال قصي : « إنما تقطعون له لنازلكم وما تريدون به فساداً . بهلة الله (أي لعنته) على من أراد فساداً » وقطع قصي بيده منها فاقتدوا به .

وكان عبد الله أكبر أولاد قصي . سبقه إلى الشرف أخوه عبد مناف ، وهو

أصغر منه . وكان قصي أشد حباً لعبد الدار -- فقال له : « أما والله يا بني لألحقنك بالقوم (يعنى أخويه) وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا بدخل رجل السكبة حتى تفتح له أنت بابها (وهى الحجابة) ولا يعقد لواء حرب لقريش إلا بيدك (وهى اللواء) ولا يشرب أهل مكة إلا فى سقايتك (وهى السقاية) ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا طعامك (وهى الرفادة) ولا تقصع قريش أمراً إلا فى دارك (وهى دار الندوة) ولا يكون أحد قائد القوم إلا أنت (وهى القيادة) » فصارت هذه الوظائف من يرمئها خاصة بعبد الدار .
ولما احتضر قصي قال لأولاده : « اجتنبوا الخمر فانها تفسد الأذهان ، ولا تصلح الأبدان » .

عبد مناف

وولى أمر مكة والبيت بعد قصي ولده عبد مناف ، واسمه المغيرة . وكان قد شرف فى حياة أبيه ، وذاع اسمه بالفضائل حتى لقب بالفياض لجوده وكرمه ، وبالبدر لحسن شمائله ، وكان يقال له ولأخيه المطلب « البدران » وقد انتشر ذكر عبد مناف فى العرب بالثناء والحمد . وأحبه العرب كافة ، وأطاعت أمره ، ورغبت فيه ، وعظمت وفخرت به .

هاشم

وأكبر أولاد عبد مناف ولده هاشم ، وهو عمرو العلاء ، لقب بذلك لعلو مقامه . وكان قد ولد هو وأخوه عبد شمس توأمين أصبع رجل هاشم ملصقة بجبهة عبد شمس ، فلم يمكن فصلها إلا بسيلان دم ، فكانوا يقولون : « سيكون بينهما خصومة ودم » وكان هاشم جليلاً وقوراً يصنع الطعام للحجاج لئلا كل منه من لم يكن له سعة ولا زاد . وقد أصاب الناس شبهه جذب شديد .

ففرج هاشم إلى الشام فاشترى من غزة دقيقاً وكعكاً . وقدم به مكة في الموسم
فهبشم الخبز والكعك ونحر الجزور وجعله ثريداً ، وأطعم الناس حتى شبعوا .
وكانت له مائدة منصوبة لا ترفع في السراء أو الضراء . ولأول موسم حج من
توليته قام فأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، وخطب قريشاً فقال :
« معشر قريش ، إنكم سادة العرب وأحسنها وجوها وأعظمها أحلاماً وأوسطها
(أشرفها) أنساباً . وأقرب العرب بالعرب أرحاماً ، معشر قريش إنكم جيران
بيت الله ، أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بني إسرائيل ، وإنه يأتيكم
زوار الله يعظمون بيته . فهم أضيافه وأحق من أكرم أضياف الله أنتم
فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتونه شعثاً غبراً من كل بلد ، على ضوامر
كالقداح فأكرموا ضيفه وزوار بيته . فو رب هذه البنية لو كان لي مال يحمثل
ذلك لكفيتكم إياه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله ما لم يقطع فيه رحم ،
ولم يؤخذ بظلم . ولم يدخل فيه حرام ، فمن شاء منكم أن يفعل ذلك فعل ،
وأسالكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج منكم من ماله لسكرامة زوار الله
وتقويتهم إلا طيباً لم يداخله ظلم ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصباً .
فكانت قريش تجتهد في ذلك وتخرج من أموالها فتضعه في دار الندوة ،
وأراد هاشم وإخوته أن يأخذوا وظائف البيت من بني عمهم عبد الدار
بعد وفاته . وأوشكت أن تقع الفتنة بينهم . ولكنهم اتفقوا أخيراً على أن
السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف ، والحجابة واللواء لبني عبد الدار ،
ودار الندوة بين الجميع ، تحالفوا على ذلك .

وقد صح ما تشام منه الناس بعد مدة فان هاشم لما ساد قومه بعد
أبيه عبد مناف ؛ حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، وتكلف أن يصنع كما

يصنع هاشم فعجز ، فغيرته قريش وقالوا له : أتتشبه بهاشم ؟ فاستكبر أمية قو لهم وأنف منه ، ودعا هاشماً للنفارة . فأبى هاشم ذلك لسنه وعلوقه . فلم تدعه قريش — فقال هاشم لأمية : « أنافرك على خمسين ناقة تنجر بمكة وعلى الجلاء عن مكة عشر سنين » . فرضى أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعسفان فخرج كل منهما في نفر ، ونزلوا على الكاهن . وقبل أن يخبروه خبرهم بادرهم بقوله : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر . وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » فعاد هاشم إلى مكة ، ونحر الإبل ، وأطعم الناس . وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين — فكانت أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

وخرج هاشم تاجراً إلى الشام ، فنزل على بنى النجار وتزوج منهم على شرط أن تلد زوجته في أهلها ، وبني بها في عودته . ثم ارتحل بها إلى مكة ، فلما أثقلت بالحمل خرج بها فتركها عند أهلها بالمدينة ، وعاد هو إلى مكة . وبعد أيام عزم على تجارة في الشام ، وكان ضعيفاً هزيراً فقال لأخيه المطلب : « إذا فرغت فأدرك عبدك يثرب » . يعنى ولده من زوجته المدنية — وذهب في تجارته — فمات بغزة .

عبد المطلب

وابن هاشم عبد المطلب ، واسمه عامر . ولقبه شيبة ، لوجود شعر أبيض بوسط رأسه من ولادته . وهو ولد هاشم من زوجته المدنية . مكث مع أمه حتى شبوبته . وجاءه عمه المطلب عقب موت أبيه . ورآه فعرف فيه شرف أبيه . ففاضت عيناه . وقال لمن حوله : « أهذا ابن هاشم ؟ » قالوا : نعم .

فعرّضهم أنه عمه . وأخذه وسار به إلى أمه . وروادها في أخذه فقالت : « لست
بمرسلته معك » . فقال لها المطلب : « إن ابن أخى قد بلغ وهو غريب عن
قومه ونحن أهل بيت شرف في قومنا . وإقامته في قومته وعشيرته وبلده خير
له من الإقامة في غيرهم ، ولست بمنصرف إلا به » . وقال عبد المطلب : « وإنى
لست بمفارقها إلا إذا أذنت » . فأذنت له . ودفعته إليه ، فأردفه على بعيه ،
وكان عبد المطلب بوجه سمرة من حر الشمس . فسار به المطلب إلى مكة .
وكلما سئل عنه قال : « إنه عبدى » حياء من سواده .

وهو مفزع قريش في الشدة ، وملجؤهم في الأمور . كان شريف قريش
وسيدها كمالاتاً وفعالاتاً من غير مدافع . ويقال له الفياض ومطعم طير السماء .
لأنه كان يرفع من مائدته للطير في رؤوس الجبال . وكان من حلياء قريش
وحكامها . وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وكان
في جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ اليهودى القول مرة على حرب في
سوق من أسواق تهامة . فأغرى حرب عليه من قتله . وعلم ذلك عبد المطلب .
فقضى على حرب بدفع مئة ناقة دية أخذها ابن عم اليهودى ، وترك منادمته .
ثم نادى عبد الله بن جدعان . وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك
الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيا الأمور .
ويقول : « لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة » إلى
أن هلك رجل ظلوم من مكة ، ولم يعلم أنه أصابته عقوبة . فقيل لعبد المطلب
في ذلك ففكر وقال : « والله إن وراء هذه الدار داراً يحزى فيها المحسن
يا حسانه ويعاقب المسيء على إساءته » . وفي آخر عمر عبد المطلب رفض عبادة
الآصنام ووجد الله تعالى ، وكان وفياً بالنذر يمنع نكاح المحارم ويقطع يد
السارق وينهى عن قتل المؤودة ويحرم الخمر والزنا . ولما مات
المطلب بن هاشم عمه وثب على عبد المطلب عمه نوفل بن عبد مناف ، وغضبه

أفنية ودوراً . فسأل عبد المطلب رجلاً من قومه النصره على عمه نوفل ، فأبوا وقالوا : « لاندخل بينك وبين عمك » . فكتب إلى أخواله بنى النجار بالمدينة بما فعله معه عمه . ولما وقف خاله أبو سعد بن عدى بن النجار على كتابه بكى ، وسار من المدينة فى ثمانين راكباً حتى قدم مكة . فنزل الأبطح وتلقاه عبد المطلب وقال : « النزل ياخال » . فقال : لا والله إلا أن ألقى نوفلاً ، فقال : تركته فى الحجر جالساً فى مشايخ قريش . فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم ، فقام نوفل قائماً وقال : « انعم صباحاً يا أبا سعد ، قال أبو سعد : لا أنعم الله لك صباحاً » ثم استل سيفه وقال : « ورب هذه البنية لئن لم ترد على ابن أختى أفنيته ودوره لأملأن منك هذا السيف » . فقال نوفل : « قدر ددتها عليه » فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثاً واعتمر ورجع ، ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بنى أخيه عبد شمس على بنى هاشم . وحالفت بنو هاشم خزاعة . وبقي لذلك أثر فى ولد نوفل حتى قال عدى بن نوفل لعبد المطلب : « تستطيل علينا وليس لك إلا الولد ، ولا مال لك ، وأنت واحد من القوم ؟ » فقال عبد المطلب : « أتقولها ، وقد كان نوفل أبوك فى حجر هاشم ؟ » فقال عدى : « وأنت أيضاً كنت فى يثرب عند غير أهلك فى أخوالك من بنى النجار ، حتى استردك المطلب ! » قال عبد المطلب : « أو بالقلة تعيرنى ؟ فله على النذر لئن أتانى الله عشرة من الأولاد الذكور ، لأجعلن أحدهم لله نحيرة » .

اكتشاف زمزم

وكان عبد المطلب يحب إكرام زوار البيت وأضيافه . ورأى قريشاً إذا حل الموسم بنو بمكة حيصاناً ونقلوا إليها الماء من الآبار البعيدة ، ليستسقى

الحجاج منها ، فيتعبد القرشيون ويظماً الحجاج فيما بين مرات نقل الماء . فشغل هذا نفسه ، وبقي يعمل الفكر ليلاً ونهاراً ، فرأى بعد حين في نومه ، أنه يحفر لسقاية الحج في البيت بئراً في مكان معين . فلما استيقظ قام ليحفر بين الصفا والمروة فمنعته قريش . فقال لولده الحرث : « زد عني حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به » . ورأته قريش مصمماً ، فكفوا عنه . ولم يحفر غير يسير وبدا له الطمى (البناء) الذي بناه مضاض الجرهمي ، فكبر وقامت إليه قريش ، وقالت : « والله يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك » فأبى عليهم رغبتهم .

ورزق بعد ذلك بعشرة أولاد فطولب في الرؤيا بوفاء نذره . وأخذوا القرعة فكانت على عبد الله ، وكان أحب أولاده إليه ، فأخذه عبد المطلب بيد والشفرة بيد ، وكاد يذبحه . فقام إليه بنو قريش وأخواله من بني مخزوم ومنعوه . وقالوا : « والله ما أحسنت عشرة أمه . أفلا أرضيت ربك ، وفديت ابنك » . ففداه بمائة ناقة فزاده الله ولدين .

زواج عبد الله

وكان عبد الله بن عبد المطلب حسن الوجه طلق الحيا ، وديع النفس جليل الخلق ، وشريفاً محبوباً من قريش ومن جاورها من العرب . قد شغل من شوبته بالتجارة والعمل فيها . ولما بلغ من السن حوالى الثلاثين ، تخير عبد المطلب في أن يزوج عبد الله . ونظر فإذا لا يعدله في نسبه وشرفه غير بنى زهرة . فأخذ بيد عبد الله ، وسار في نفر من قريش ، يريد زواجه بالسيدة أمية بنت وهب بن عبد مناف . وهنا وصفت له بنت عمها هالة بنت وهيب بن عبد مناف ، فتزوج الثانية وهي أم حمزة . وزوج الأولى لولده عبد الله وبنيا بهما في أهلها . وعادوا جميعاً إلى مكة ، وبعد مدة

قصيرة وكانت السيدة آمنة في الشهر السابع من حملها ، خرج عبدالله في غير لقريش بتجارة إلى غزة . وتغيب مع رفاقه شهراً . وفي عودتهم مرض عبدالله في الطريق ، فلما صاروا بالمدينة طلب إليهم التخلف عند أخواله فيها بنى عبد الدار . ومضى أصحابه فقدموا مكة ، وسألهم عبدالمطلب عنه فقالوا : خليفناه عند بنى النجار مريضاً . فبعث إليه الزبير بن عبدالمطلب (شقيق عبدالله) فوجده قد توفي ودفن . فعاد وأخبر أباه عبدالمطلب ، فجزع لذلك أشد الجزع وحزن بنو هاشم لموته ، وقد خلف عبدالله خمسة من الجمال ، وقطعة من الغنم وجاريه بركة الحبشية « أم أيمن »

محمد صلى الله عليه وسلم

مولده :

ولما أتمت السيدة آمنة حملها وجاءها المخاض نهار الإثنين ، ثامن يوم من ربيع الأول في دارها . وعندها الشفاء ، أم عبد الرحمن بن عوف وأم أيمن جارية عبد الله ، وضعت طفلاً أبيض الوجه في عينيه حمرة ، وأرسلت أمه وراء جده عبد المطلب ، وكان يطوف بالكعبة فجاء مسرعاً فقالت له : « يا أبا الحرث ولد لك مولود » . ورفعته إليه فأخذه فرحاً ودخل به الكعبة تبركاً وطاف بها ، ووقف يدعو الله وجماعة من أهله خلفه يؤمنون على دعائه وجاءها فدفعه إليها ، وأخبرها بأنه قد سماه « محمد » .

وفي ليلة مولده امتلأت السماء بالشهب ، وأرسلت متتالية وبكثرة شديدة . وكان مثل هذا يعتبره العرب إشارة إلى ظهور ملك أو موت ملك . وفي اصطلاح الناظرين في علم الفلك والنجوم ؛ دليل على حدوث اضطراب في عالم الأرض أو تهيج أو انتقال عام بين المستعمرين ، وفي حال حدوث أوبئة عامة

أو عند ظهور مولود سعيد يدل على أن له كبير تأثير في الأرض ، بناء على أن أجرام العالم العلوى مرتبطة بالعالم الأرضى ارتباط نظام وتأثير . وعندهم أنه لا توجد حركة عالمية إلا كانت مسبقة بالإيجاد بما يدل عليها من حركات في النجوم .

إرضاء :

ولبت الطفل ليلتين لا يرضع ، ثم أرضعته بعد أمه ثوبية جارية أبى لطف ابن عبد المطلب . وذهبت فأخبرت سيدها بولد عبد الله فأعتقها لوجود عوض في المولود عن أخيه ، ولاهتمام العرب بالبنين

وكان من عادة العرب أن يروا عاراً على المرأة أن ترضع ولدها ، ويجهدون في أن تكون المرضعة من غير قبيلتهم . ومن رأيهم أن ذلك أنجب للولد ، وكان المرضعات من النساء الفقيرات يخرجن في طلب إرضاع أولاد الأمراء والأغنياء ، التماساً للارتفاع الحال ، وحرصاً على أن يكنّ قد صنعن مع آباء الأولاد شبه معروف يستعصن عنه من كرامتهم . فوفد على مكة نسوة من بنى سعد (بطن من بنى بكر بن هوازن) وفيهن حليلة بنت أبى ذؤيب وتكنى أم كبشة . وعلم عبد المطلب بقدم وفد المرضعات ، فخرج بنفسه يتخير مرضعة لابن ولده ، واستقبلته حليلة فسألها عن اسمها ، فقالت « حليلة من بنى سعد » وكان كغيره من العرب يتفاهل ، فتبسم وقال : « نجح حلم وسعد ! خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأيد » ومشى معها فأدخلها بيت السيدة أمّة فرحبت بها ودفعته إليها ، فأخذته وعادت إلى قومها . وكانت في فقر فأرخت « زاد خيرها » ومضت سنتان وفصلته وكان في بنى سعد عزيزاً مكرماً ، وحليمة وزوجها وأولادها محبوباً . وقد وجد مع هذا من جودة المناخ وصفاء الطقس ما ناسب ، فجعل يشب بأكثر من عادة أمثاله ، ولم يقطع سنه حتى كان غلاماً

قويّاً يرمى السهام مع الصبيان ويتكلم الفصيح . ولما بلغ السنتين قدمت به حليلة على أمه بمكة وقالت لها حباً فيه : « دعيني يا سيدتي أرجع به هذه السنة الأخرى ابتعاداً به عن أذى هذه التربة » فقالت السيدة : « لا بأس فارجعي به على الفور فإنني أخاف عليه وباء مكة » فرجعت به حليلة . ولما ترعرع كان في بني سعد يخرج فيرى الصبيان يلعبون فيجتنبهم . ورأى البيت فارغاً على مرضعته فقال لها : « يا أماه مالي لا أرى إخوتي نهراً » قالت : « فدتك نفسي إنهم يرعون غنماً لنا فيروحون من ليل إلى ليل » قال : « ابعثيني معهم » فكان من ذلك العهد يخرج معهم .

ولما بلغ الرابعة من سنه رآته حليلة يتغيب عن إخوته نهراً ويتخلف عنهم ليلاً . وكانت قد توجست حسد القوم له . وأتاها الحرث زوجها فقال : « أرى أن تردّي محمداً على أمه ، والله إن أصابه ضرر فما هو إلا حسد من آل فلان لما يرون من عظيم بركته » قال لها بعض بني سعد : « يا حليلة رديه على جده واخرجي من أمانتك » فقدمت حليلة به . ولما كانت على مقربة ضلته في أعالي مكة . فأتت جده عبد المطلب فقالت : « لقد قدمت بمحمد الليلة ، ولما كنت بأعالي مكة أضلني ، فوالله ما أدري أين هو » وكان عبد المطلب كثير الفرع إلى الله كلما عن له أمر . فقام يدعو الله أن يرده عليه . وما جثم أن نهض متعجلاً وتبعه ورقة بن نوفل فوجدا محمداً قائماً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها واستغربا من حاله أن يكون هو . فاقتربا منه ورقة وسأله : « من أنت يا غلام ؟ فقال : « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » فأكب عبد المطلب عليه يعتقه ويبكي ويقول : « أنا عبد المطلب جدك فدتك نفسي ، ثم رجعا به إلى مكة » .

ودخلت به حليلة على أمه فقالت لها منذ رأتها : « ما أقدمك يا ظئر (أى يامرضة) لقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك » قالت حليلة : « قد بلغ والله ، وتخوفت عليه الأحداث ، فأدبته إليك كما تحبين » قالت السيدة : « كلا والله ما للشيطان على ولدى سبيل ، دعيه عنك ، وانطلق راشدة » .

تربية محمد

ومن ذاك اليوم احتضنته أمه وكفله جده ، فكان لا يقدم اليه طعام إلا قال : « على بابي » فإذا حضر أجلسه إلى جنبه ، وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب الطعام .

حتى إذا وافت السنة السادسة من عمر محمد وكانت أمه فى زيارة أخواله بنى النجار ومعها أم أيمن بركة الحبشية جارية عبد الله . مكثت شهراً ومرضت فى طريق عودتها إلى مكة فماتت ودفنت بالأبواء ، واحتضنت محمداً أم أيمن بركة . وعادت به إلى مكة بعد وفاة أمه بخمسة أيام . فأخبرت جده بوفاة أمه فحزن عبد المطلب حزناً شديداً وضمه إليه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده . ومن ذاك الحين كان محمد يدعو أم أيمن بأمه .

وكان لعبد المطلب فراش يوضع له فى ظل السكبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته ولا من أشراف قريش لإجلاله له . وكان بنوه وسادات قريش يحقدون به . فجاء محمد وهو فى سن السابعة حتى جلس عليه ، فأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فقال عبد المطلب : « دعوا ابنى يجلس فانه يحس من نفسه الشرف » ثم أجلسه معه ومسح على ظهره . وسره مارأى منه .

وفى هذه السنة استنقذ ملك اليمن سيف بن ذى يزن الحميرى مأسكه من

أيدي الحبشة، وكانوا قد اغتصبوه من حمير، وبقي في حكم الحبشة سبعين سنة . وجاءت وفود العرب لتهنئته . وبالجملة قریش وفيهم عبدالمطلب وأمية بن عبدشمس وعبدالله بن جدعان التيمي وأغلب وجهاء قریش . وكان الملك سيف في قصره بصنعاء . فأذن لهم فدخلوا عليه وحوله أشراف اليمن . فقام عبدالمطلب خطيباً فقال : « إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً شامخاً عالياً منيفاً . وأنبئك نبأنا طالت أرومته . وعظمت جرتومته (الأرومة والجرثومة الأصل) وثبت أصله . وبسق (طال) فرعه . في أطيب موضع . وأكرم معدن . وأنت أييت اللعن (أى أييت أن تأتي من الأمور ما يلعن عليه) ملك العرب الذي له تنقاد عمودها الذي عليه العباد . وكهفها الذي يلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف . وأنت لنا فيهم خير خلف . فلن يهلك خبر من أنت خلفه . ولا يخمل ذكر من أنت سلفه . نحن أهل حرم الله وسدنة بيته . أشخصنا (أحضرنا) إليك الذي أبهجننا من كشف الكروب التي فدحت (أثقلت) فنحن وفد التهنة لا وفد التزنة (التعزية) » قال الملك « من المتكلم ؟ » قال « عبدالمطلب بن هاشم » قال « ابن أختنا ؟ » قال : « نعم » قال « أدنه » ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : « مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلاً ، وملكا رجلاً (عطاء كثيراً) يعطى جزلاً ، قد سمعت مقاتلكم ، وعرفت قرابتكم ، وقبلت وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ولستم الكرامة ما أقمتم ، والخباء (العطاء) إذا ظعتم ، فانهمضوا إلى دار العنيفة » فقاموا وأجرى عليهم القرى شهراً لا يصلون اليه ، ولا يؤذن لهم بالأنصراف وأرسل إلى عبد المطلب فأدناه . وقال عبدالمطلب : « إني مفض اليك من سر على أمرأ لو غيرك يكون لم أبج له به . ولكن رأيتك معدنه ، فأطلعتك طلعه فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل ، إني أجد في الكتاب المسكنون ، والعلم المخزون ، الذي ادخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه (كتمناه) دون غيرنا خبراً

عظيماً ، وخطراً جسيماً ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للعرب عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة ، قال عبد المطلب : « مثلك أيها الملك من سر ، وبر ، فما هو فداك أهل الوبر . زمرا بعد زمر ؟ » . قال : « إذا ولد من تهامة غلام بين كتفيه علامة ، كانت له الامامة ، ولستم به الزعامة (السيادة) إلى يوم القيامة » . قال عبد المطلب : « أبتُ (رجعت) بخير ما آب بمثله وافدقوم ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه ، لسألته في مسارة (مساررته) إياي ما أزداد به سرورا » . قال الملك : « هذا حينه الذي يولديه ، أوقد . ولد اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه . ويكفله جده وعمه . سيعثه الله جهازاً ، ويجعل له منا أنصاراً . يعز بهم أوليائه ، ويذل أعداءه ، وبضرب بهم الناس عن عرض (جميعاً) ويستفتح بهم كرائم الأرض . يعبد الرحمن ، ويدحض (يبطل) الشيطان ، ويحمد النيران ، ويكسر الأوثان . قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله » وينهى عن المنكر ويبطله » قال عبد المطلب : « جد جدك . ودام ملكك . وعلا كعبك . فهل الملك سارسي بأفصاح ، فقد وضح لي بعض إيضاح » قال : « والبيت ذى الحجب والعلامات على النقب (الطرف) إنك لجدك يا عبد المطلب ، غير كذب » . نفر عبد المطلب ساجداً ، فقال : « ارفع رأسك . ثلج صدرك . وعلا كعبك . فهل أحسست بشيء مما ذكرت لك ؟ قال : « نعم أيها الملك ، إنه كان لي ابن كنت به معجباً وعليه رفيقاً (مشفقاً) زوجته من كرائم قومي ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة . فجاءت بغلام سميت محمداً . ومات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه » قال الملك : « إن الذي قلت لك كما قلت . فاحتفظ بابنك . واحذر عليه اليهود ، فانهم أعداؤه ، واطو ما ذكرت لك ، عن الرهط الذين معك . فاني لا آمن أن تدخلهم النفاسة ، في أن تكون له الرياسة . فينصبوا له الحبال ، ويغوا له الغوائل . سيفعلون ذلك وأبناءؤهم من غير شك . ولولا أني أعلم أن الموت محتاجي

(مهلكى) قبل مبعثه . لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير يثرب دار ملكه ،
 فإني أجسد فى الكتاب الناطق ، العلم السابق أن يثرب دار ملكه
 واستحكام أمره . وأصل نصرته ، وموضع قبره . ولولا أنى أقيه الآفات ،
 وأحذر عليه العاهات . أعلنت من حداثة سنه أمره . وأعليت على اسنان
 العرب كعبه . وسأصرف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك « ثم دعا بالقوم
 وأجزل لهم المنع ، وأعطى عبد المطلب قدر ما أخذ الجميع . وقال له : « إذا جاء
 الحول ، فأنتى بالخبر . وما يكون من الأمر » (فمات الملك قبل أن يحول الحول)
 وعاد القوم فنظر عبد المطلب فرأى على القرشين كتابة من تمييز الملك له
 بالعزلة وكثير العطايا . فقال : « لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ، ولكن
 يغبطنى بما سارنى به ، مما يبقى لى ذكره ولشعبى ، وستعلمون نبأ ذلك بعد حين »
 ورجع عبد المطلب وكل عنايته منصرفة إلى محمد الذى كان وهو فى الثامنة
 شديد الميل إلى العزلة تَوَاقُافاً إلى الانفراد . وغفلت عنه أم أيمن حاضنته يوماً .
 وفيما هى تتساءل عنه رأت عبد المطلب قائماً على رأسها ويد محمد فى يده .
 وقال : « يا بركة ، أتدرى أين وجدت ولدى ؟ » قالت : « لا أدرى » قال :
 « وجدته قريباً من السدرة ، فلا تغفل عن ابنى فان له خصوما »

وأصاب قريشاً جذب أيبس الجلد وأرق العظم ، فراحوا يهرعون إلى
 الأصنام ويلتمسون بوساطتها فرجا من ضيقهم ، فلم يفلحوا . ورجعوا فظافوا
 حول عبد المطلب وقامت عنده قريش ، وانفض إليه من كل بطن رجل ، فقام
 ومعه محمد قد أيفع (ارتفع) أو كرب (قرب) ودعا فقال : « اللهم سادّ الخلة ،
 وكاشف الكربة . أنت عالم غير معلم ، ومستول غير مبخل . وهذه عبيدك
 وأماؤك بقدرات (أفنية) حرمك ، يشكون اليك سنتهم التى أقحلت (أينست)
 الظلف والخف . فأمطرنا اللهم غيثاً سريعاً مغدقاً » فانفجرت السماء بالماء .
 وكظ (ضاق) الوادى بشجيجه (سيله) .

ولما سقوا لم يبلغ المطر بلاد قيس « ومضر » فاجتمع عظماءهم إلى عبد المطلب فقالوا : « قد أصابتنا سنة مجدة وقد بان لنا أثرك ، وصح خيرك . فاشفع لنا عند من شفعتك ، وأجرى الغمام لك » قال عبد المطلب : « لكم الطاعة ، وموعدكم غداً عرفات » ثم أصبح غادياً ، وخرج معه الناس وولده ومحمد ، فأقامهم صفاً ومحمد أمامه ، وقال : « اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف . رب الأرباب ، وملين الصعاب ، هذه قيس ومضر ، من خير البشر . قد شعنت رموسها ، وحدبت ظهورها . تشكو إليك شدة الهزال ، وذهاب النفوس والأموال ، اللهم فأتخ (هـ) لهم سحاب الماء ، وعين السماء لتضحك أرضهم ، ويزول ضرهم » فلم يفرغ حتى رأى السحاب تمر . فقال : « معاشر قريش ومضر ، انصرفوا فقد سقيتم » .

ولما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى على محمد ابنه أبا طالب والزيير ابن عبد المطلب ، وشيعت جنازته قريش وأبناؤه . وبكى محمد خلف سريره بكاء مرأ ولم يبك أحداً بعد موته ما بكى عبد المطلب بعد موته . ولم تقم بمكة سوق مدة مديدة .

أبو طالب

وكفل محمدأ بعد عبد المطلب عمه أبو طالب . وكان شفوفاً بهجباله . وكان مقلامن المال . فكان أولاده إذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال لهم : « كما أتم حتى يأتي ولدي » فإذا أتى وأكل معهم فضل في طعامهم القليل معظمه . فيقول أبو طالب : « إن ولدي لمبارك » وكان محمد لا يشكو من الجوع والعطش ، وكان إذا أصبح يغدو فيشرب من زمزم ، فربما يعرض عليه الغداء فيمتنع .

وكان لأبي طالب وسادة يجلس عليها كأيّيه . فجاء محمد فجلس عليها ، فتبسّم أبو طالب سروراً بفعله ، وقال : « إن ابن أخى ليخبر بشرف عظيم » .

وحدث في قريش قحط فقال قائل : « اعتمدوا اللات والعزى » . وقال آخر :

« اعتمدوا مناة » فقال شيخ منهم وسيم الطلعة : « أنى تؤفكون (تصرفون) عن الحق ، وفيكم بقية إبراهيم وإسماعيل ، فكيف تعدلون عنه إلى ما لا يجدى ؟ » قالوا : « كأنك تعنى أبا طالب ؟ » قال : « إيها » فقاموا بأجمعهم فقالوا : « يا أبا طالب أحمط الوادى » وأجذب العيال . فاستسق لنا فخرج أبو طالب ومعه محمد وهو غلام وحوله غيلة (جمع غلام) فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ (طاف) الغلام بأصبعه (مر بأصبعه حول رأسه) فأقبل السحاب من هنا ومن هنا ، واغدودق مطره (كثر) وانفجر الوادى ، وأخصب الحاضر البادى .

وإن رجلاً من هلب كان قائفاً ، وكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر فيهم ويقتاف لهم ، فأتاه أبو طالب ومعه محمد . فنظر إليه وشغل عنه بشيء فلما فرغ قال : « علىّ بالغلام ، وجعل يقول : ويلكم ردوا علىّ الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكون له شأن » ورأى أبو طالب حرصه على ابن أخيه فغيبه وانطلق به .

واختار محمد وهو فى سن العاشرة أن يرعى غنم عمه وأهله بلا أجر كعادة غلمان العرب . ورأى أبا طالب يتهيأ للسفر بتجارة إلى الشام . فطلب إليه أن يرافقه فأردفه خلفه وسافرا ، فنزلا على صاحب دير استخبر أبا طالب عن محمد . فقال : « إنه ابنى » قال : ما هو بابنك ، وما ينبغى أن يكون لهذا الغلام أب حى لأنه يكون يتيماً من أبويه ، ويعطى النبوة » قال أبو طالب : « وما النبى ؟ »

قال : «الذى يأتيه الخبر من السماء لأهل الأرض. قال أبو طالب : «سبحان الله ، الله أجل مما تقول» ، والتفت إلى محمد فقال : «ألا تسمع ما يقول ؟» قال محمد : «أى عم ، لا تنكر الله قدرة ، والله أعلم» .

وسارا مع الركب ، فلما نزل بصرى وبها الراهب بحيرا . وكان لا يكلم المارة ، وقد بدا له شيء ، فطلب إليه القرشيين وطلب إلى أبي طالب غلامه فأحضره فجعل بحيرا يلحظه ، وقال : «أسألك باللات ومناة إلا أخبرتنى» ، قال محمد : «لا تسألنى باللات ومناة فوالله ما أبغض شيئا أبغضهما» . فجعل يسأله عن حاله في نومه وهياته وأموره . ومحمد يجيبه ، ثم قال لأبي طالب : «ارجع بابن أخيك ، فإنى أخشى عليه الأذايا» فرجع به أبو طالب من فوره .

ورجع محمد مكة فأخذ يرعى الأغنام بالأجرة . وابتعد بها فى الفضاء ميلا منه إلى الوحدة ، وقد عرف فى القوم بحسن الأخلاق ، وصدق الحديث ، والأمانة ، وكرم المخالطة ، واجتناب الدنيا .

شبوكة محمد

فلما بلغ حداً فى الشبوكة ، قال يوماً لجاره فى الرعاية : «أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان» فأجابه . فخرج حتى إذا جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، وسأل فقبل قد تزوج فلان بفلانة — لرجل من قریش — فجلس يلهو بما يسمع . وغلبه النعاس فلم يوقظه إلا حر الشمس ، ورجع إلى صاحبه الراعى فأخبره الخبر . وفعل مثل هذا فى الليلة الثانية .

وكانت بوانة صنماً تعظمه قریش ، وتذبح له وتحلق عنده ، وتعكف عليه

يوماً إلى الليل في كل سنة . فكان أبو طالب يحضر ذلك مع قومه ويطلب من محمد أن يحضر ذلك العيد فيأبى . فلما كان في مثل هذا اليوم من سنة دعاه أبو طالب وحوله عماته . جعلن يقلن له في غضب : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، فما تريد أن تحضر لقومك عيد ولا تكثّر لهم جمعاً ، ولا زالوا به حتى ذهب وغاب عنهم ماشاء الله ، ثم رجع مرعوباً فزعاً فقلن له : « مادهاك ؟ » قال « أخشى أن يكون بي كسَم » (مس من الشيطان) فقلن ما كان الله عز وجل ليبتيك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذي رأيت ؟ » فقال : « إني كلما دنوت من بُوانة تمثل لي من يصيح بي ، وراءك لآتمسه » فعذرته ، وما عاد إلى عيد لهم بعد ذلك .

متاجرة محمد لنفسه

وقام في تجارة بالاشتراك مع السائب بن أبي السائب إلى حباشة (على بعد ست ليال من مكة) . فاشترى بزاً (ثياباً) وعاد فابتاعها بمكة . وكان السائب كثيراً ما يقول نعم الشريك محمد : « لا يدارى ولا يمارى ولا يشارى » (المشارة المشاحة واللجاج) .

ثم ذهب بعدها بتجارة البز أيضاً بمفرده إلى حباشة ، وعاد فابتاع منه ما اشتراه حكيم بن حزام (ابن أخى عم خديجة) .

متاجرته لخديجة

وذاع خبر شغل محمد بالتجارة ، وما حصل عليه من الربح ، وقد عرف في القوم بأنه الصادق الأمين . فجاءه أبو طالب وقال له : « يا ابن أخى أنا رجل لا مال لي . وقد اشتد الزمان (أى قحط) وألحت علينا سنون منكرة . وليس

لنا مادة ولا تجارة . وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام . وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في غيراتها ، فيتجرون لها في مالها ويصيرون منافع ، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك ، لما عرف من طهارتك ، وإن كنت لا كره أن تأقى الشام ، وأخاف عليك من اليهود ، ولكني لا أجد لك من ذلك بداً » قال محمد : « ولعلها أن ترسل إليّ في ذلك » . قال أبو طالب : « أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمراً مديراً . وافترقا . وبلغ خديجة ما كان من محاربة أبي طالب له . فقالت : « ما علمت أن محمداً يريد هذا » وأرسلت إليه . فقالت : « دعاني من البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك إذا كنت راغباً في العمل بتجارتي » فأجاب . وكانت تجارة خديجة قد قامت إلى الشام . فأمرت غلامها ميسرة فصار مع محمد إلى حرش (بلد من أطراف اليمن فيما يلي الحجاز) واشترى منها بزاً ورجع وما غاب إلى مكة فربح ربحاً حسناً . فجهزته للسفر ثانية إلى الشام وقالت لميسره : « لا تعصى لمحمد أمراً ، ولا تخالف له رأياً ، واجعل عمومته يوصون به أهل العير » فصار حتى نزل بصرى بقرب صومعة نسطورا الراهب (كبير فرق النسطوريين النصارى) وكان يعرف ميسرة من تردده عليه . وسأل محمداً أسئلة وأجاب عليها . وحضر محمد سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها وربح ربحاً زائداً . وشم حدث بينه وبين رجل خلاف في سلعة . فقال الرجل : « احلف باللات والعزى » قال محمد : « ما حلفت بها قط ! » فهبت الرجل فيه طويلاً ثم قال : « قنعت والقول قولك » وخلا الرجل بميسرة فقال : « إن هذا الشاب غير عادي ، وإن له لشأناً » فأحب ميسرة محمداً حباً شديداً . فكان كأنه عبده حتى رجعا . وأخبر ميسرة خديجة بما رأى من محمد فزادت أجره .

زواج محمد بخديجة

وكانت خديجة امرأة حازمة جلدة قوية شريفة ومن أوسط (أعرق) نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالا وأحسنهم جمالا . وتلقب في الجاهلية بالطاهرة وسيدة قريش . وكان كل قومها حريصاً على الزواج بها لو قدر . وقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل . حتى إذا كان بعد رجوع محمد من الشام أتته مَنيّة أخت يعلى بن ؛ مُنْسيّة مرسلّة في الخفاء من خديجة فسارت محمداً بقولها : « ما الذي يمنعك أن تتزوج ؟ قال : « ليس بيدي ما أتزوج به » قالت : « وإن كفيت هذا » ودعيت إلى المال والجمال والشرف الكفاية ، ألا تجيب ؟ قال : « فمن هي ؟ » قالت : « خديجة » قال « وكيف لي بذلك وأنا أفعل ؟ » قالت : « ذلك هو » وذهبت فأخبرت خديجة فاستدعته وحضر . فأخذت بيده فقبلتها وقالت : « بلغني ما ذكرت لمنية ، وقد رغبت فيك يا ابن عم لقرايتك وأما نتك وحسن خلقك وصدق حديثك » فذهب وذكر ذلك لأعمامه . فنهض الأمر أبو طالب وحمزة وجماعة من بني هاشم . وأرسلت خديجة فحضر إليها عماها عمرو بن أسد وورقة بن نوفل ونقر من قريش . وقام أبو طالب خطيباً فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئىء (معدن) معد وعنصر (أصل) مضر . وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه . وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً . وجعل فينا الحكم للناس . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً . وإن كان في المال قل ؛ فإن المال ظل زائل . وأمر حائل . وعارية مسترجعة . وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمكم خديجة وأصدقها عشرين بكرة » . قال عمرو بن أسد : « محمد الفحل الذي لا يفدع أنفه »

(لا يضرب على أنفه ليرد عن الناقة) وقام ورقة بن نوفل فقال : « الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت . فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد فى الناس نحركم وشرفكم وقد رغبنا فى الاتصال بجميلكم وشرفكم . فاشهدوا معشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله ، وذكر المهر . فقال أبو طالب : « وأحب أن يشركك عمها » فقال عمرو : « اشهدوا على معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وبذلك تم الأمر .

بناء الكعبة

كان ارتفاع بناء الكعبة إلى هذا الوقت تسعة أذرع ، ولم يكن لها سقف . وكان حولها ردم قديم ، وجاء السيل فأخرب الردم وأزال بعضه . وأرادت قريش هدمها وتشيد بنيانها ورفع أبوابها . واجتمعت قبائل قريش تنقل الحجارة كل قبيلة تنقل على حدة . وبدأ أبو وهب عمر بن عابد (خال عبد الله ابن عبد المطلب وكان شريفاً . فتناول حجراً فسقط من يده . فذعر ونادى فى القبائل : « يامعشر قريش لا تدخلوا فى بنيان البيت شيئاً أصبتموه غصباً ، ولا قطعتم فيه رحماً ، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس » وذهب الناس ينفلون الحجارة ويرفعون أزهرهم على عواقبهم فتعزى أنصاف أخادهم . فقال العباس بن عبد المطلب لمحمد : « اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة » ففعل نحر مغشياً عليه . فضمه العباس إليه وأفاق محمد فجعل يقول إزارى إزارى ! فشد عليه إزاره وماله العباس عن شأنه فأخبره بأنه أزعج بصوت يقول له : « أشدد عليك إزارك » فلما كان فى اليوم بعده نسي العباس فطلب إلى محمد رفع إزاره . فقال محمد : « ما أصابنى ما أصابنى إلا من التعزى ! » وعمدوا إلى هدم

السكبة على حذر وشفق ، فقال الوليد بن المغيرة : « أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ » قالوا : « بل الإصلاح » قال : « فان الله لا يهلك المصلحين . ثم أخذ المعول ، وقام : « وهو يقول اللهم لم نزع » ثم هدم من ناحية الركنين ، فترى الناس ليلتهم وقالوا : « ننظر فان أصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء هدمناها فقد رضى الله ما صنعنا » فأصبح الوليد غادياً إلى عمله فهدم والناس معه ، حتى انتهوا إلى الأساس . وأخذوا في بنائها فلما بلغوا منه موضع الحجر اختصموا كل قبيلة أن تريد أن ترفعه إلى موضع وبقي النزاع على هذا إلى خمس ليال . ثم اجتمعوا في البيت ، وكان أبو أمية ابن المغيرة أسن قریش كلها يومئذ (وهو أحد أجواد قریش) فقال : « يا معشر قریش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد (وأشار إلى باب شعبة ، وهو الآن باب السلام) ليقضى بينكم ، فرضوا ، فكان محمد أول داخل ، فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، وقد رضيناك حكاماً » وأخبروه الخبر فوضع إزاره مبسوطاً على الأرض وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه . وقال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الأزار وارفعوه جميعاً » ففعلوا حتى بلغوا بالحجر موضعه الآن . فقال رجل من أهل نجد كان ضيفاً بمكة : « عجباً لقوم أهل شرف وعقل ومال ؛ عمدوا إلى أصغرهم سنأ وأقلهم مالا ، فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحوزهم ؛ كأنهم خدم له ! أما والله ليفرقنهم شيعاً وليقسمن بينهم حظوظاً ! » فكاد قوله يثير شراً فيما بينهم .

بقى محمد بعد ذلك زمناً شغل فيه بالتجارة بنفسه ، وبواسطة عمال أجراء ، فيخرج إلى أطراف اليمن مما يلي الحجاز ، ويرسل وكلاء عنه إلى بلاد الشام .

شغل محمد بنفسه

وبلغ سن الأربعين أو حواليها ، فأخذ يرجع إلى عاداته في الطفولة من

كثرة الصمت ، واجتناب المجتمعات ، والابتعاد عن مجالس المقاسبات . فكان يرى غارقاً في التفكير ملتفتاً إلى ما يشغله من خواطر عميقة مستأنساً بنفسيات باطنة كانت تستجره إلى العزلة والانفراد ، فيسر أن يكون في وحدة إلا في أحوال ضرورية . فكان يشاهد قائماً أو قاعداً على جبل حرا (بالمد والقصر) ينظر في السماء بياض يومه ، ويرسله المساء إلى بيته ، واستمر على هذا أياماً .

مبدأ النبوة

وفي هذه الأيام أى أيام بعثته رأى الناس ما هالهم وافترع شجعانهم ، من تغير الأجواء المحيطة بالأرض وسقوط النجوم وتناثر الشهب . وتساقط الصواعق ، وكان من اعتقادات العرب ؛ أن سقوط الشهب دلالة على ظهور ملك أو موت ملك كما تقدم . ولكن توالى ذلك أخافهم ، فذهب جمع من ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان معروفاً بسداد الرأى والخبرة بمثل هذه الأمور . فقالوا له : « يا عمرو ، ألم تر ما حدث في السماء من الرى بهذه النجوم ؟ » « قال بلى ، فانظروا فان كانت معالم النجوم (أى النجوم المعروفة التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء فى الصيف والشتاء) هى التى يقذف بها . فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا العالم ، وإن كانت نجوماً غيرها ، وهى ثابتة على حالها ، فانه لأمر أراد الله بهذا الخلق » .

ورأى بنو لُهب فرع ثقيف فاشتد جزعهم ، واجتمعوا إلى خطر بن مالك وكان شيخاً كبيراً ، وأعلم أهل زمانه بالكهانة ، وقد أتت عليه مائتان وثمانون سنة فقالوا : « يا خطر هل عندك علم عن هذه النجوم المقتدفة ، فانا فرعنا لها وخفنا سوء عاقبتها ؟ » فقال : « اتئو بنى سَحَسَر ، أخبركم الخبر . الضرر . أم لا من أوحذر ! » فانصرفوا عنه ، وأتوه فى موعده فاذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء .

فنادوه : « يا خطر يا خطر » فأوماً إليهم أن امسكوا . وانقض على أثر قوله نجم عظيم من السماء ، فصرخ الكاهن رافعاً صوته أصابه إصابته (بضم الباء جمع وصب أى ناله شقاؤه) خامره عقابه ، عاجله عذابه . ما لهذا العاق . والترصد للاستراق ؟ يتعرف من احتكاك الكواكب ، وتقارب المسارب . واحتكاك النجوم ، عن حادث موهوم . وكأنما قد أغلق بابيه ، ومنح جوابه . وأحرقه شهابه . ياويله ما حاله ؟ بلبله بلبله ، عاوده خباله ، تقطعت حباله ، وغيرت أحواله « ثم أمسك طويلاً ، وقال : « أقسم بالكعبة والأركان ، والبلد المؤمن السدان (الخدم) لقد منع السمع عتاة الجان ، بثاقب من ذى سلطان . من أجل مبعوث عظيم الشأن ، تبطل به عبادة الأوثان .

ثم عمد محمد إلى غار حراء . وكان غاراً واسع الجوف يعتكف في ناحية منه معظم اليوم . ويعود إلى الجبل فيمكث قليلاً ، ويعود ملتزماً ناحية من الطريق وعينه مرسلتان إلى الأمام لا يلتفت إلى الطراق ، ويبقى على هذا مدة كان ما يرى في نومه أوضح وأصرح من يقظته . يرى الرؤيا الصادقة له ولغيره ، ويحلو له ما يشاهد من مناظر تسكريم وحفاوة ، فيشرح صدره وتنش نفسه .

مبدأ الوحي

وفي يوم بينما كان يسير متباطئاً على جبل حراء ، سمع على مرات أصواتاً تناديه : « يا محمد . يا محمد ، ونظر فلم يجد أحداً فعبجل العودة قبل الميعاد . ورجع وعلى حياه أثر انقباض مما رأى حتى جاء البيت وقابلته السيدة خديجة زوجته وقرست حدوث تغيير به وسألته فقال : « إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد ، يا محمد ، وإني لأخشى أن يكون بي جنون ! » فقالت : « كلا يا ابن عم . ما كان الله ليفعل ذلك بك . فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصديق الحديث »

ثم قامت فأفرغت عليها ثيابها التي تتجمل بها عند الخروج . وانطلقت إلى ورقة ابن نوفل . وكان متعبداً على اليهودية ثم على النصرانية . وقالت : « إن ابن أخيك يخلو بنفسه فيسمع من يناديه يا محمد ، يا محمد ، فينطلق شاردأ ، قال ورقة « أطلبي له أن لا يفعل إذا أتاه ويثبت حتى يسمع ما يقول وائتني » فعاتت وأخبرت محمداً بذلك . ولم يكن ماحدث به من الخوف في ذلك مانعاً له بل زاد به الميل إلى الاستكثار من الوحدة وحب الاعتكاف على العبادة . فبكر العودة إلى غار حراء بعد أن استصحب من زاد يصلح للصدقة وبعضاً من كعك وزيت وكان قد اعتاد دخول هذا الغار رغبة التعب فيه عبد المطلب وورقة بن نوفل وأبو أمية بن المغيرة ، يأوون إليه فيوزعون على بابيه صدقات لفقراء تعودوا على تناولها من راغبى التعب . ويدخلونه أياماً ، فوزع محمد ما استصحب من صدقة ودخل الغار فلم يبرحه ست ليل كان فيها يجلس الساعات مفكراً ، ويقوم مثلها شاخصاً ويسجد فلا يرفع إلا بعد ساعات . فاذا فرغ عاد إلى بيت خديجة أياماً قليلة ولا يلبث أن يتزود ويعود إلى الغار ، وهكذا دام أسابيع لا يرى الناس إلا في غدوه إلى البيت ورواحه إلى الغار ، وازدادت به الرغبة فتزود إلى شهر انقطع فيه إلى العبادة في الغار لا يشغل عنها إلا عندما يسمع أصوات المساكين بطلب الصدقات . ويعود إلى ما كان عليه . وعلى هذا الحال بقى زماناً يأتي الغار شهراً فاذا نفذ الزاد منه رجع فيدخل الكعبة ويطوف البيت ثم يدخل بيته ويتزود ، ويعود إلى الغار .

نزول الوحي

وفيما هو نائم ليلة رأى في نومه كان صوتاً ضخماً من سماء الغار يناديه باسمه ! ونظر فإذا بصورة جميلة قد التحفت بالأنوار ، فصرف عينيه إلى ناحية

من الغار فرأى صورتها ، وقلب نظراته فاذا هي هي . وأصغى فسمع : « محمد : إقرأ : فقال » ، « أنا أمي لأحسن القراءة » فبدأ له نور ملأ الغار وغشى بصره واقترب منه في وسط ذلك النور شبه إنسان احتضنه بشدة وأرسله . وقال : « إقرأ » فقال : « والله ما قرأت شيئاً » ففعل معه كالأول وأرسله . ثم قال : « إقرأ » فقال : « ماذا أقرأ ؟ » قال : إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم » واستيقظ من نومه على صوت رسول السيدة خديجة . وكانت قد صنعت طعاماً فبعثت تستدعيه فانصرف من جواره وجاء البيت فطاف ؛ ثم دخل بيته واستقبلته السيدة فأخبرها بما رأى . ودخل على الأثر أبو بكر صديقه . فقصصت عليه رؤيا محمد ، وقالت : « اذهب يا عتيق بصاحبك إلى ورقة بن نوفل » فأخذ أبو بكر بيده وذهب به إلى ورقة وأخبره برؤياه ، فقال ورقة : « إن مارأيت سر الوحي وهو جبريل ، فياليتني فيها وأنذر أو اصل وجودها (أي الرسالة لأن مارأى دليل النبوة) شاباً فابلق في نصرتها ، وليتني أكون حياً حين يخرجك قومك » فقال محمد : « أخرجني هم ؟ ! » قال : ورقة « نعم لم يأت رجل بما تستجيء به إلا عودي » .

بعد ذلك عاد محمد إلى عبادته في الغار بأنشط من مواضي عاداته مدة . إلى عصر يوم وهو قائم على شط جبل حراء ، فرأى وراءه شخصاً أجميلاً يناديه : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » فتمكث واقترب المنادى منه واستقرأه ما أملاه فقرأه . ثم عاد إلى مكة فبدأ بالكعبة يطوف بها فلقى ورقة بن نوفل وهو يطوف فبدأه بقوله : « ثم ماذا يا ابن أخي ؟ » فأخبره بما رأى وسمع فقال ورقة : « أبشر فوالذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، والذي رأيت الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، وإنك لنبي مرسل ، وستؤمر بعد قليل بالجهاد ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرأيعلبه » ثم أدنى منه رأس النبي محمد وقبل يافوخه .

أحوال الوحي

بعد ما مرّ امتنع الوحي عن النبي حوالى شهر تهدئة له وإعداداً لنفسه ، فكثر تردد النبي على الغار والجبل تشوقاً إلى الوحي . ثم عاد فأناه ، ومن ثم كان يوحى إليه إما مناماً ، وإما يخاطب بمعنى ما يوحى إليه فيسمعه من كل جسمه وفي هذه لا يبقى عضو منه إلا اضطرب منزجاً . وإما لفظاً بواسطة رسول الوحي — وكان هذا يأتيه أحياناً بصفته الملكية فيشعر بثقل وتكلف شاق . وأحياناً يأتيه في صورة أحد أصحابه أو بصورة مجهولة .

أول التكليف

وأول ما بدأ الوحي بعد العودة قوله : يا محمد إن الله قد أرسلك رسولا إلى الإنس والجن ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله — ثم أخذ بيده ماء فرش به داخل فخذه . ثم توضأ الوضوء المعروف . ففعل النبي مثله — وقال جبريل هذا هو الوضوء . وقام أمام السكبة متجهاً إلى بيت المقدس فصلى ركعتين والنبي خلفه يفعل فعله . وقال هكذا الصلاة (أى نوع الصلاة لأنها كانت لم تفرض بعد) — بعد هذا غاب الوحي . وجاء النبي السيدة خديجة وأخبرها فدهشت من الفرح . وتوضأ أمامها ليريه كيف الطهور للصلاة . فتوضأت وقام فصلى بها .

بدء الدعوة

وكان قد أصاب الناس قحط فطلب محمد عمه العباس بن عبد المطلب ، وقال له : إن أخاك أبا طالب كثير العيال . والناس فيما ترى من الشدة . فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله فتأخذ واحداً وأنا واحد — فجاء إليه فقال أبو طالب :

اتركا لى عقيلاً وطالباً واصنعوا ما شئتما . وكان أولاد أبى طالب أربعة
أكبرهم . طالب وعقيل وجعفر وعلى وهو أصغرهم . فكفل النبي علياً ،
والعباس جعفرًا . فكان على فى بيت النبي ، فدخل عليه فوجده وخديجة
يصليان فقال : ما هذا ؟ قال : دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ،
فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته . وإلى الكفر باللات والعزى .
فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، ولست بقاض أمرًا حتى أحدث
أبائى . وكره النبي أن يفشى على سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال : يا على
إذا لم تسلم فاكتم هذا ، فلبث على ليلته وأصبح غادياً إلى النبي فأسلم . وجاء فى
الليلة التالية أبو طالب ومعه جعفر ولده فوجد النبي يصلى وعلياً عن يمينه .
فقال لجعفر : صل جناح ابن عمك فوقك عن يساره .

سير الدعوة

وقد كان النبي يخفى أمره ويدعو إلى الله سرّاً ، واتبعه ناس عامتهم ضعفاء
من الرجال والنساء . منهم زيد بن حارثة ربيبه وزوجته وبركة أم أيمن الحبشية
حاضنة النبي . وكان إذا حضرت الصلاة خرج مستخفياً ومعه على إلى شعاب
مكة فيصليان فيها ، فإذا أمسيا رجعا . ولقى أبو طالب علياً فقال : أى بنى
ما هذا الذى أنت عليه ؟ قال : يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به
ودخلت معه واتبعته ، فقال أبو طالب : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .
ورآهما بعد ذلك أبو طالب يصليان بنخلة (ناحية بقرب مكة) فقال للنبي :
يا ابن أخى . ما هذا الذى تدين به ؟ . قال : هذا دين الله ودين ملائكته ورسله
ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد . وأنت أحق من بذلت له
النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعانتى عليه .

فقال أبو طالب : ما بالذي تقوله من بأس ، ولكنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه !

إسلام أبى بكر

وكان أبو بكر (واسمه عبد الكعبة) صديقاً للنبي يكثر غشيانه ومحادثته فى منزله ، وقد سمع قول ورقة له لما ذهب معه اليه ، وكان صدرأ معظماً فى قريش وعلى سعة من الحال وكرم الأخلاق من رؤساء قريش وموضع مشورتهم ومن أعف الناس وكان كريماً سخياً ومحبباً فى بني تيم الله عشيرته وعالماً بأنساب العرب . وكان متوقفاً نبوة محمد . فبينما هو مع حكيم بن حزام فى يوم إذ جاءت مولاة لحكيم وقالت له : إن عمك خديجة تزعم اليوم أن زوجها نبي مرسل مثل موسى ، فأنسل أبو بكر وأتى النبي فسأله ، فقص عليه بعثته ، فقال أبو بكر : صدقت بأبى أنت وأمى وأهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله . وسمعت السيدة خديجة قوله فخرجت وعليها خمار أحمر . وقالت : الحمد لله الذى هداك يا ابن أبى قحافة ، وسماع النبي عبدالله ولقبه بالعتيق .

السابقون إلى الاسلام

وأسلمت يومئذ أسماء بنت أبى بكر ، وأم الفضل لبابة زوجة العباس بن عبد المطلب . ورقية وأم كلثوم بنتا النبي وكانتا قد خطبتا إلى عتبة وعتيبة ابني أبي لهب ولم يدخلأ بهما . وأسلمت زينب ابنته أيضاً وكانت متزوجة بأبى العاص وكان عظيماً فى القوم (وبقيت مع زوجها وذلك قبل أن يشرع تحريم نكاح المشرك للسلمة) وأسلم بلال بن حمامة معتوق أبى بكر ، وسعدى

بنت كرز العبشمية ، وعمران بن حصين ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وزوجته أم جميل فاطمة بنت الخطاب .

إسلام عثمان

وكان عثمان بن عفان من ظرفاء مكة وأغنيائها ، جاء لزيارة خالته سعدى بنت كرز ، فأخبرته خبر النبي ، وكان له مجلس (صحبة) من أبي بكر فجاءه ووجده وحده ، فسأله عن خبر صاحبه فحشّه أبو بكر على اتباعه ورغبه في الاسلام . وفي هذا الوقت مر النبي ومعه على يحمل له ثوباً ، فقام له أبو بكر وعثمان وسار النبي وقعد أبو بكر ومشى عثمان خلف النبي ، فأقبل عليه فقال له : أجب داعي الله تعالى إلى جنته فيني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه . فاثمالك عثمان أن أسلم ، وعاد إلى بيته فاستدعاه عمه الحكم بن أبي العاص ابن أميه (والد مراون بن الحكم) وأوثق كتافه وقال : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أفارقه — فلما رأى الحكم صلابته تركه .

إسلام الزبير

ولقي أبو بكر الزبير بن العوام فقال له : ما منعك يا ابن العوام أن تدخل في دين محمد ؟ فلم يراجع وأسلم وذاع إسلامه ، وكان له عم يؤذيه بسبب إسلامه ويدخن عليه بالنار فيقول الزبير : والله لا أكفر أبداً .

إسلام عبد الرحمن بن عوف

وكان عبد العزى (عبد الرحمن) بن عوف كثير الأسفار بالتجارة ، فعاد

مرة ولقى أبا بكر فقال : قدمت على عسكلان بن عواكن الحميري فجعل يسألني : هل ظهر فيكم رجل له نبالة ؟ هل خالفكم أحد منكم في دينكم ؟ فقلت : لا قال أبو بكر : هذا محمد قد بعثه الله فآته . فتركه وذهب إلى بيت خديجة . وراه النبي فضحك وقال : أرى وجهاً خليقاً أن أرجو له خيراً ، فما وراك ؟ فأخبره ما تقدم وأسلم ، فسماه عبد الرحمن .

إسلام سعد

وكان سعد بن أبي وقاص (ابن عم السيدة آمنة أم النبي) يطمئن إلى أبي بكر ويأنس به ، فلقبه يوماً أبو بكر ودعاه إلى الإسلام وحثه عليه فأجاب وأسلم . وكرهت أمه إسلامه ، وكان سعد باراً بها ، وقالت له : ألسنت تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم ؟ قال : نعم ، قالت : والله لا أكلت ولا شربت حتى تكفر بما جاء به محمد وتمس أسافاً ونائلة (تتبرك بالصنمين) ومكشت أياماً لا تأكل ولا تشرب . فقال لها : تعلين والله يا أماه لو كان لك مائة نفس تخرج نفساً نفساً ما تركت دين محمد ، فكلتي إن شئت أو لا تأكلي . فلما رأت ذلك أكلت وهجرها ، وجاء يوماً فوجد الناس مجتمعين عليها وعلى أخيه عامر بن أبي وقاص فقال : ماذا ؟ قالوا : إنك أخذت أخاك عامراً في دين محمد ، وأملك تعطى الله عهداً لا تأكل ولا تشرب حتى تترك دين محمد ، فقال سعد : والله يا أمه لا تستظلين ولا تشربين حتى تتبؤني مقعدك من النار .

إسلام طلحة وآخرين

وقدم طلحة بن عبيد الله التيمي من سفره بالبصرة فلقى أبا بكر وقال : قد أخبرت في سفرى بأن سيحدث جديد هام في مكة ، فما ذاك يا ترى ؟ قال :

نعم ، إن محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله تعالى ، وقام معه إلى بيت خديجة وقابل النبي وأسلم . وأسلم عبيدة بن الحرث بن المطلب ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي وزوجته أم سلمة ، وعثمان بن مظعون الجمحي وأخواه قدامة وعبد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي . ولقي عبد الله ابن مسعود الهذلي النبي وأبا بكر ، فقال : علمني ياسيدي ! ف مسح النبي رأسه وقال : بارك الله فيك فانك غلام معلم . فأسلم ، وكان النبي بعد ذلك يدينه ولا يحبس (يمنع) وكان كثير التردد على النبي ، ويمشي أمامه إذا مشى ، ويستتره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ، وإذا جلس أدخلهما في ذراعيه ، حتى كان الصحابة يدعونه بصاحب سر النبي .

وكان جندب بن جنادة (بضم الجيم فيهما) الملقب بأبي ذر الغفاري موحداً ومتنسكاً ، فبلغه خبر النبي فقال لأخيه أنيس : انطلق إلى هذا الرجل فكلمه واقتني بخبره ، فذهب وعاد يقول : لقد والله رأيت رجلاً يأمر بخير وينهى عن شر ويشدد على مكارم الأخلاق ، فأتى أبو ذر مكة وطاف بالبيت فرأى النبي يصلي . فجاءه وقال : السلام عليك (وهو أول من حيا بها) قال النبي : عليك السلام ، من الرجل ؟ قال : أبو ذر الغفاري ، وأسلم ، قال النبي : اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم . فاذا بلغك ظهورنا فاقبل . قال أبو ذر : والذي بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم ، وذهب فوقف على جموع قريش في السكبة ، ونادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقال أهل الوادي عليه بالعصى والحصى حتى خر مغشياً عليه ، فأكب العباس بن عبد المطلب عليه وقال للناس : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن تجارتكم عليهم ، نخلوا عنه ، فجاء أبو ذر بثر زمزم وغسل عنه الدماء ، وفي الصباح رجع إلى مثل فعلته ، فصنعوا به كالأول ،

وأدركه العباس وخلصه ، فرجع إلى أنيس أخيه فوجده قد أسلم ، وأتيا أمهما فأصلبت وأسلم من قومها النصف .

ورأى خالد بن سعيد بن العاص رؤيا ، فأتى في الصباح أبا بكر فذهب به إلى النبي وقال : ما تدعو إليه ؟ قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله (قبل أن يشرع غيرها) وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . فأسلم خالد ، وباغ إسلامه أباه سعيد بن العاص وكان من عظام قريش ، فأرسل في طلبه وانتهره وضربه بمقرعة كانت في يده حتى كسرها على رأسه . وقال : اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه لقومك ، وأنسيت ما جاء به من عيب آلهتهم ومن مضى من آبائهم ؟ قال خالد : اتبعته والله على ما جاء به ! فغضب أبوه ، وقال : اذهب يا لكع حيث شئت ، والله لأمنعك القوت . قال : إن منعني فإله يرزقني ما أعيش به . فأخرجه وقال لبيته : لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به مثله ، وانصرف خالد فلزم النبي يعيش معه ويغيب عن أبيه في نواحي مكة ، ومرض سعيد فنذر إن شفى لا يعبد إله ابن أم كبشة لقب حليلة المرضعة . وخالد هذا أول من كتب بيده : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعد ذلك أسلم إخوته عمرو وأبان والحكم الذي سماه النبي ، عبد الله .

وصهيب وكان فارسياً ابتاعه من الروم جماعة من العرب وباعوه إلى عبد الله ابن جدعان ، مر يوماً على دار النبي فرأى عمار بن ياسر ، فقال عمار : أين تريد يا صهيب ؟ قال : أريد أن أدخل على محمد أسمع شيئاً من كلامه ، وما يدعو إليه قال عمار : وأنا أريد ذلك ، فدخل على النبي فأمرهما بالجلوس وعرض عليهما الإسلام ، وقرأ آيات من القرآن ، فتشهدا ، ثم مكثا عنده يومهما ، وخرجا

مستخفين ، ودخل عمار على أبيه وأمه وأخبرها خبره ، وقرأ عليهما ما حفظه من القرآن ، فأعجبهما وأسلما .

وشكا جماعة من قريش إلى حصين والد عمران ، وكان معظما فيهم . فقالوا : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها . وجاءوا معه فجلسوا قريباً من باب النبي ، ودخل حصين وولده عمران في الجلوس . ولما رآه النبي قال : أوسعوا للشيخ . وقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا ؟ فقال : يا حصين كم تعبد من إله ؟ قال : سبعة في الأرض وواحد في السماء ، قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذي في السماء ، قال : فإذا هلك المال ؟ قال الذي في السماء . قال : يستجيب لك وحده وتشرك معه غيره !؟ يا حصين أسلم تسلم . فتشهد ، فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ، فامتلات عينها النبي بالدموع وقال : بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم له عمران ولم يلتفت ناحيته . فلما أسلم وفي بحقه ، فدخلني من ذلك الرقة . وأراد حصين الخروج ، فقال النبي لأصحابه : شيعوه إلى منزله . ورأته قريش فقالوا : صبا الشيخ ، وتفرقوا .

الاقبال على الاسلام

من يومئذ أقبل الناس على الإسلام ، من رجال ونساء . وقريش في أثناء هذا لم يبعدوا عنه ولم يردوا عليه . وإنما كان إذا مر النبي على مجالسهم قال العامة منهم : هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء ، فيغضى ولا يلتفت إليهم ، ويدعو الناس خفية . وإذا أراد الصلاة (صلاة الركعتين بالغداة والعشي) ذهب إلى بعض شعاب مكة فيستخفي بصلاته .

وفيا كان سعد بن أبي وقاص ونفر من المسلمين يصلون في أحد شعاب

مكة ؛ ظهر عليهم نفر من قريش وناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون . فقتلوا وتلاعنوا ، ففُضرب سعد رجلاً بلحى بعير فشججه (وهو أول دم في الاسلام) واشتد الأمر ، فجمع النبي إليه أصحابه ، ودخل بهم دار الأرقم (الآن دار الخيزران) فأقاموا بها يقيمون الصلاة ، ويعبدون الله .

إبلاغ الدعوة إلى الأقربين

جاء الوحي إلى النبي بإنذار عشيرته (وأنذر عشيرتك الأقربين) فاشتد ذلك على النبي وضاق به ذرعاً ، فكثت نحو شهر لا يخرج من مقره ، فظنت عمامته أنه شاك (مريض) فدخلن عليه عائدات ، فقال : ما اشتكيت شيئاً ، لكن أمرت بإنذار عشيرتي ، وأريد أن أجمع بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله ، فقلن له : أدعهم ولا تجعل عبد العزى (أبا لهب) فيهم (سمي أبا لهب لإحمرار خديه) فانه غير مجيبك إلى ما تدعو ، وخرجن عنه ، وأصبح فبعث إلى بني عبد المطلب فحضروا وفيهم أبو لهب الذي بادر بالكلام فقال : يا محمد هؤلاء عمومتك فتكلم بما تريد وارك الصبأة ، واعلم أنه ليس للعرب بقولك طاقة ، وأن أحق من أخذك وحيسك أسرته وبنو أبيك إن قتت على أمرك ، وهو أيسر من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فاني لم أر أحداً قط قد جاء بني أبيه وقومه بأمر مما جئتنا به . فانصرف النبي عن الرد عليه بقوله : يا بني كعب بن لؤى ، وبني مرة بن كعب ، ويا بني هاشم وبني عبد شمس وبني عبد مناف وبني زهرة وبني عبد المطلب ، أنفذوا أنفسكم من النار ، إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فتزاحموا بكلام لم يفهم ، وأنصتوا ، فقال أبو لهب : تباً لك (غل) ألهذا جمعتنا ؟ ثم انصرفوا (ونزل القرآن بالرد على قوله تباً) .

وفي يوم بعد هذا أمر النبي فصنع طعام في بيت خديجة وأوقى به إلى دار أبي طالب وأرسل وراءه عشرين فحضرُوا ، وبعد أن تناولوا الطعام خطبهم بقوله : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبدأ أولنار أبدأ ، يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومَه بأفضل مما جئتمكم به ، إني قد جئتمكم بأمر الدنيا والآخرة ، فتكلم الناس كلاماً ليناً غير أبي لهب فقد قال : يا بني عبد المطلب هذه والله السوءة ، خذوا على يده وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو غيره ، قبل أن يأخذ على يده غيركم ، فإن التمسوه ذلتم وإن منعموه قتلتم . فقالت أخته صفية بنت عبد المطلب (أم الزبير بن العوام) : أي أخي أيحسن بك خذلان ابن أخيك ، فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضنئي (أصل) عبد المطلب نبي ، وهو هو ؟! قال أبو لهب : هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء في الحجال ، فإذا قامت بطون قریش وقامت العرب معها فما قوتناهم ، والله مانحن عندهم إلا أكلة رأس ! فقال أبو طالب : والله لنمنعنه (ندافع عنه) ما بقينا ، ثم تفرقوا .

وما مضى غير قليل من الأيام وأمر النبي فصنع طعام في دار خديجة ، ودعا أهله فحضرُوا ورأوا الطعام وهو شاة مع مد من البر وصاع من اللبن (الصواع أو الصاع والمد مكييل ، والصاع أربعة أمداد . والمد رطل وثلاث عند الحجازيين ورطلان عند العراقيين) أي أقل من كفايتهم ، فتغامزوا وتسابقوا إلى تعاطيه ، فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا ، وبقي من الطعام قدر كفايتهم .

فدهشوا وجعل بعضهم ينظر إلى بعض تعجباً . وأراد النبي أن يتكلم فسبق أبو
 لهب وقام وهو يخاطب الحضور بقوله : لقد سحركم صاحبكم ، فقام الجميع
 وانصرفوا .

وفي يوم بعده مر النبي فوجد جماعة من قريش على الصفا . فقال يخاطبهم :
 أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ،
 أكنتم تكذبوني ؟ فأجاب أكثرهم : والله ما جر بنا عليك كذباً . فقال : يا معشر
 قريش أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً . إني لكم نذير
 مبين بين يدي عذاب شديد . إن مثلي معكم مثل رجل رأى العدو فانطلق يريد
 أهله خشية أن يسبق إليهم . فجعل يهتف يا صباحاه يا صباحاه ! أتيتكم أتيتكم !
 أنا النذير العريان (المتعري عن النصير) إن الله قد بعثني إلى الخاق كافة وإليكم
 خاصة فقال (وأنذر عشيرتک الأقربين) وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على
 اللسان ثقيلتين في الميزان ، شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فمن يحببني
 إلى هذا الامر ويؤازرني على القيام به ؟ . فلم يحبه أحد وتفرقوا .

ودأب يدعو الناس إلى دينه وكفار قريش لا ينكرون قوله ، ولكن كان
 يمر على مجالسهم فيشiron إليه باستهزاء . إن غلام بنى عبد المطلب يتكلم في
 السماء ، فعلوا ذلك مراراً إلى أن عاب آلهتهم وسفه عقولهم ، فتناكروا وأجمعوا
 على خلافه وعداوته . وجأوا أبا طالب ، وقالوا : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا
 وعاب ديننا وسفه أحلامنا ينسبنا إلى قلة العقل ويضلل آباءنا ، فإما كفته عنا
 أو خليت بيننا وبينه ، فإنك على مانحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب
 قولوا رقيقاً ، وردهم بالجميل وانصرفوا .

ومضى النبي يظهر دينه ، ويدعو إليه أهله لا يرده عن ذلك شيء ، فكثير

الشر وتزايد وانتشر بينه وبينهم ، حتى تباغض الرجال وتضاعفوا ، وأكثر قريش ذكر النبي بينهم ، وحرص بعضهم بعضاً على مقاطعته وعدائه وحربه . فشوا إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا وعيب آلهمنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم تطب نفسه بأن يخذل النبي بجأه وقال له : يا ابن أخي إن قومك جاؤني فقالوا كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق . فظن النبي أن عمه خاذله وأنه قد ضعف عن نصرته . ونظر في عمه طويلاً وأطرق برأسه ثم قام عنه . فلما ولى ناداه أبو طالب ، وقال : أقبل يا ابن أخي . فعاد إليه ، فقال : اذهب فقل ما أحببت والله لأأسلمك . وبلغ هذا قريشاً ، فجاءوا أبا طالب بعارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا : هذا عمارة أنهر (أشد) وأجمل فتى في قريش ، نخذه لك ولدًا وتبناه وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينه ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه عقولهم فنقتله . فقال أبو طالب : بئسما تسومونني ! أنعطونني ابنكم ، أغذوه لكم وأعطيكم ولدى تقتلونه ! أفرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها ! والله لا يكون هذا أبداً . فقال المطعم بن عدى : والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تقبل منهم . قال أبو طالب : والله ما أنصفوني ، ولكن قد أجمعت خذلان ومظاهرة القوم ، فاصنع ما بدالك . من ذلك اشتد الأمر وعلت المناقسة ، ورأى أبو طالب إصرار قريش على العداء . فدعا بني هاشم وبني عبد المطلب إلى ما يعتزمه من منع النبي والقيام دونه فأجابوه غير أبي لهب . وبقي يجاهر النبي بالظلم ومن آمن معه بالأذى ، وسمع أبو جهل بما كان من أبي طالب فقال : لله على إن رأيت محمداً ساجداً

أن أظأ عنقه . وبلغ النبي قوله فخرج حتى دخل المسجد وقام يصلى ، وأقبل أبو جهل فحاذاه ثم نكص راجعاً . فسئل عن رجوعه فقال : والله لما كأنه محمد الذى أعرفه !

وذاع فى الناس نزول سورة ؛ تبث يدا أبى لهب جواباً على شتمه للنبي بما مضى . وامرأته أم جميل بنت حرب (أخت أبى سفيان) وكانت تضع الحسك والشوك فى طريق النبي من بيته . فجاءت النبي ومعه أبو بكر وبسدها فهر (حجر يملأ الكف وبه طول تدق به الهاون) وقالت : يا أبا بكر ماشأان صاحبك ينشد الشعر فى ؟ قال : لا ورب هذا (يشير إلى البيت) ما هجأك صاحبى وما هو بشاعر . فقالت : أنت صادق ، وانصرفت ولم تر النبي .

وقال أبو لهب لولده عتبة : رأسك من رأسى حرام إن لم تفارق رقية ابنة محمد (وكان قد تزوجها قبل الدعوة ولم يدخل بها وتزوج معه أخوه عتبة أم كاثوم أختها ولم يدخل بها) فقال عتبة وكان ينوى الذهاب إلى الشام : لآتين محمداً ولأؤذينه فى ربه ، وللحال أتاه فقال : يا محمد أنا كافر برب النجم إذا هوى ، وبالذى دنى فتدلى ، وابنتك مردودة عليك ، ثم بصق فى وجه النبي وذهب ، فقال النبي : سلط الله عليك كلباً من كلابه . وكان أبو طالب حاضراً فوجهم لذلك ، وقال : ما أغناك يا ابن أخى عن هذا . وأخبر أبو لهب بذلك ، فخاف على ابنه ، ورافقه فى سفره إلى الشام وهناك قتل عتبة سبع .

ودخل النبي المسجد وقام يصلى وجماعة من قريش جلوس ينظرون إليه ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم فيجىء بفرت (خشاء) جزور فيضعه بين كتفيه إذا سجد . فقام عتبة بن أبى معيط فأحضر فرتاً طريئاً وألقاه بخفة على ظهر النبي وهو ساجد . فضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة

الضحك ، وذهب إنسان وأخبر فاطمة بنت أسد (أم علي بن أبي طالب)
بجاءت والنبي في سجوده وألقت القذر عنه وأقبلت تشتم الحاضرين . ورفع
هو من سجوده وهو يقول : اللهم عليك بأبي الحسك (يعني أبا جهل) وعتبة
ابن ربيعة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وعمار بن الوليد وأميمة
ابن خلف ، اللهم عليك بقريش (كررها ثلاثاً) وسمعوا صوته فذهب عنهم
الضحك وهابوا دعوته .

ودخل النبي البيت للطواف ويده في يد أبي بكر وخلفهما عثمان بن عفان
وفي الحجر ثلاثة عشر نفر جلوس ، عقبة بن أبي معيط وأبو جهل وأميمة بن
خلف . فطاف النبي وصاحبه حتى إذا حاذوا النفر أسمعوه بعض ما يكره ، فدنا
عثمان من النبي فجعله بينه وبين أبي بكر فلما حاذاهم ، قال أبو جهل : والله
لا نصلحك ما بل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا . فقال النبي :
أنا على ذلك ، ثم مضى عنهم . وصنعوا في الشوط الثالث مثل ذلك . حتى إذا
كان الشوط الرابع قاموا إليه . ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه
فدفعه عثمان في صدره فوقع على الأرض ، ودفع أبو بكر أميمة ودفع النبي
عقبة بن أبي معيط ، فانفرجوا عنه وهو واقف فقال : أما والله لا تنتهون حتى
يحل عليكم عقابه . فوقفوا سكوتاً ، فنظر إليهم النبي وقال . بئس القوم أنتم
لنبيكم . ثم انصرف وتبعه أصحابه إلى باب بيته ، وأقبل على أبي بكر وعثمان
وقال : أبشروا فإن الله مظهر دينه وتمام كلمته وناصر نبيه . وسترون من
هؤلاء من يذبح عاجلاً .

وعلمت قريش بما جرى فاجتمع ساداتهم وكبرأؤهم وساداتهم في الحجر
وذكروا النبي ، فقالوا : ما صبرنا لأمر قط صبرنا لهذا الرجل ، ولقد شتم آباءنا

وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلنا . وهم في هذا طلع عليهم النبي وأقبل
يمشي حتى استلم الركن ثم مر طائفاً بالبيت . فلما صار حياهم لمزوه ببعض القول ،
ومر ثانية فلمزوه ، ثم مر في الثالثة فوقف عليهم وقال : أسمعوا يا معشر
قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح ، فذعروا وصمتوا قليلاً .
وأقبلوا يقولون : يا أبا القاسم انصرف فوالله ما كنت جهولاً ، فانصرف
عنهم .

ولما كان في الغد اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ محمداً منكم
وما بلغكم منه . حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه ، وفي هذه اللحظة توابوا
إليه كل رجل واحد وأحاطوا به يحذونه في شعر رأسه وحيته حتى سقط بعض
شعره ، وأخذ رجل منهم بمجمع رداءه ، وأتى الصريح إلى أبي بكر فخرج
ودخل المسجد فوجدهم كذلك فقال : يا ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي
الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم . فكفوا عن النبي وأقبلوا على أبي بكر
يضربونه . فقال النبي دعهم يا أبا بكر فوالذي نفسي بيده إنني بعثت إليهم بالذبح
فتفرقوا عنه .

جرى كل ذلك والنبي ومن آمن معه لا يزالون في دار الأرقم ، وألح أبو بكر
في الخروج إلى المسجد ، فقال النبي : يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل به حتى خرج
وأصحابه إلى المسجد وقام أبو بكر خطيباً (وهو أول خطيب في الإسلام)
ودعا إلى الله ، فقام المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، وضربوه
ضرباً مبرحاً ، ووطىء أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً .
وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين (مطبقتين) ويحرفهما
إلى وجهه ، فصار لا يعرف أنفه في وجهه . وجاؤا بنو تميم عشيرة أبي بكر
يتعادون ، فأجلت المشركين عنه وحملوه إلى بيته وهم لا يشكون في موته . ثم

رجعوا فدخلوا المسجد وعادوا إلى أبي بكر ، وجعلوا مع أبيه يكلمونه فلا يجيب . إلى أن كان آخر النهار تكلم فقال : ما فعل النبي ؟ فغذوه فصار يكرر ذلك . فقالت أمه : والله مالي علم بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب (أخت عمر بن الخطاب) فاسأليها عنه ، فجاءت أم جميل وقالت : « إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله ، فقالت أم جميل : لا أعرف محمدًا ولا أبا بكر ، أو تريد أن أخرج معك ؟ قالت : نعم ، » فخرجت معها فأتت أبا بكر فوجدته صريعاً ، فصاحت قائلة : إن قومًا نالوا منك هذا لأهل فسق . وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم ، فقال أبو بكر : وما فعل النبي ؟ قالت أم جميل : هذه أمك تسمع . قال : لا عين عليك منها ، قالت : إنه سالم في دار الأرقم . قال والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً آتيه فاستمهلوه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجوا به متكئاً على كتف أمه ، ودخل على النبي فرق له وأكب عليه يقبله والمسلمون كذلك ، فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي ما بي من بأس إلا مانال الناس من وجهي . وهذه أمي برة بولدها فعسى الله ينقذها بك من النار ، فدعاها النبي إلى الإسلام فأسلمت ودعاها . وجاسوا يتحدثون ، فقال الصحابة : إن قريشاً لم تسمع شيئاً من القرآن فمن يسمعهم إياه جهراً ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : نخشى عليك منهم . إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم ، قال : دعوني فإن الله يمنعني ، وذهب عبد الله في الصباح وقريش في أندية فرفع صوته قائلاً (بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن) واستمر يتلو . فقالوا : ما بال ابن أم عبد ؟ قال بعضهم . جاء يتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر حتى قرأ أكثر السورة . وانصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه . فقالوا : هذا الذي خشينا عليك ! قال : والله ما رأيت أهون علي مثل

اليوم ، ولو شئتم أنيتهم بمشاها غداً ، قالوا : لا فقد أسمعتهم ما يكرهون .
وقد كان أبو لهب والحكم بن العاصي وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط
جيران النبي في منزله . فجعلوا يطرحون عليه الأذى في داره . فيأخذ ذلك
ويخرج فيقف على باب داره ويقول بتلطف : يا بني عبد مناف أيّ جوار
هذا ! ثم يليقه . وإذا قرأ القرآن تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره
فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار .

إسلام حمزة

ومر بعد هذا عند الصفا فاعترضه أبو جهل ، وسبه وشتمه وعفر التراب
على رأسه وهناك مولاة صفية بنت عبد المطلب . وانصرف النبي
ولم يكلمه ، وذهب أبو جهل إلى نادى قريش (موضع تحدّثهم في المسجد)
فجلس معهم ، وفيما كان حمزة بن عبد المطلب عائداً من صيده ، كانت امرأتان
تسيران من خلفه . فقالت إحداهما للأخرى تساررها ، لو علم حمزة ما صنع
أبو جهل بآبئ أخيه أسرع في مشيته . وسمعها حمزة فأقصر في مشيته ليسمع
قولها ، فلحقته مولاة صفية وأخبرته الخبر . فاحتمل حمزة الغضب ودخل
المسجد فرأى أبا جهل جالساً في القوم . فأقبل حتى وقف على رأسه وضربه بقوسه
فشجه شجة منكرة وقال : أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد على
ذلك إن استطعت . فقال أبو جهل : إنه سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف
آباءنا . قال حمزة : لأنكم تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا إله إلا
الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقامت رجال من بني مخزوم عشيرة أبي جهل
لينصروه . وقالوا : نراك قد صبات ، قال حمزة : وما يمنعني وقد استبان لي
أنه رسول الله والذي يقوله حق . والله لا أفزع فامنعوني إن كنتم صادقين .

قال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإني والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً . وتركهم حمزة . وفي الصباح أتى النبي فأسلم . وقال : أشهد أنك لصادق . فأظهر يابن أخى دينك ، فما أحب أن لى ما أظلمته السماء وأنا على ديني الأول . فسر النبي بإسلام حمزة لأنه كان أعز قتي في قريش وأشدهم شكيمة . ومن يومئذ عز النبي ، وعرف له قريش هذا فكفوا عن بعض إيذائه .

أذى قريش للمسلمين

وأقبلوا على بعض أصحابه بالأذية . وخاصة منهم المستضعفين الذين لا ناصر لهم . وأخذ كل بطن من قريش يعذب من اتبع النبي ويفتنه عن دينه بالحبس والضرب والجوع والعطش وغير ذلك . حتى كان الواحد منهم لا يستطيع الجلوس من شدة الضرب الذى به . وكان أبو جهل يحرض الناس على ذلك . وإذا سمع بإسلام رجل له شرف ومنعة جاءه ووبخه وزجره وهدده بضيايع كرامته وشرفه . وإذا كان تاجراً أخافه بهلك المال وكساد التجارة . وإن كان ضعيفاً أغرى به . حتى فتن بعض من آمن عن دينه وأرجعه إلى الشرك كالحرث بن ربيعة بن الأسود وأبي القيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصى بن منبه بن الحجاج .

معارضة قريش للنبي

بعد ذلك اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة وأبو سفيان بن حرب ورجل من بني عبد الدار وأبو البحتري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزومي وأمية بن خلف والعاصى بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج فقالوا : انظروا أعليكم بالشعر

والكهانة فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشدت أمرنا وعاب ديننا ،
 فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه . قالوا : ما نعلم غير عتبة بن ربيعة . فقام
 عتبة حتى جلس إلى النبي في المسجد ، فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قعد
 علمت من السلطنة في العشيرة والمكان في النسب . وإنك أتيت قومك بأمر
 عظيم فرقت به جماعتهم وسفحت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت
 من مضى من آبائهم ، ففضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً
 وأن في قريش كاهناً ، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيف فنتفانى ،
 فاسمع أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها . قال النبي : قل
 يا أبا الوليد أسمع . قال يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئته من هذا الأمر
 مالا جمعنا لك من أموالنا فتكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سموّ ذلك
 علينا فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملسكنك علينا ، وإن كان
 هذا الذى يأتيك رياءً من الجن يعتريك لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك
 الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك . قال النبي : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال :
 نعم . قال : فاسمع ، قال : أفعل . قال النبي « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل
 من الرحمن الرحيم ، الى قوله : صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة
 على فيه وناشده الرحمة أن يكف . فقال النبي : قد سمعت يا أبا الوليد ، وأنت
 وذاك ، فقام عتبة ورجع إليهم . قالوا : ما وراءك ؟ قال : والذى نصبها بنيسة
 (يريد الكعبة) لقد عرضت على محمد كذا وكذا فسمعت منه كلاماً ليس
 بشعر ولا كهانة ولا سحر . وقد أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ،
 وقد علمتم أنه لا يكذب خفت العذاب عليكم فأمسكت بفيه ، فأطيعوني
 واعتزلوه . فان يصبه غيركم كفيتموه ، وإن ظهر فلكم ما يمسكم ، وعزه عزمكم
 قالوا : لقد سحرك بلسانه يا أبا الوليد ، وما لنا إلا أن نذهب إليه بجمعنا ،

وقاموا فأتوا أبا طالب وسألوه أن يحضر محمداً ويأمره بإزالة شكواهم ، وأن
يحييهم الى أمر فيه الألفة والصلاح . فأرسل أبو طالب إلى النبي ، وقال له :
يا ابن أخي هذا الملاء من قومك فأزل شكواهم ، وقالوا : يا محمد ما نعلم رجلاً
من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، وإنه ما في قبيح
إلا جلبته فيما بيننا وبينك . فان كنت إنما جئت بهذا تطلب
الشرف فينا فتحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك
علينا ، وإذا كان هذا الأمر الذي يأتيك رئياً غلب عليك بذلنا أموالنا
في طلب الطب لك أو نعذر . قال النبي : ما بي ماتقولون ولكن الله بعثني إليكم
رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات
ربي ونصحت لكم ، فان قبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة
وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : وإن كنت
غير قابل ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق داراً ولا أقل مالاً
ولا أشد عيشاً منا ، فسل ربك يسير لنا هذه الجبال التي ضيقت علينا (يريدون
الجبال المحيطة بمكة) وليبسط لنا بلادنا (يوسع أرضها) وليجر فيها أنهاراً
كالشام والعراق . وسله يرسل معك ملكاً يصدقك ويراجعنا عنك ، ويجعل لنا
جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة تغن بها أنت عن المشي في الأسواق
والتماس المعاش ، أو فاعبد آلهتنا ونحن نتكفل بكل ما تحتاج إليه ، فإن لم تفعل
فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة وإلا ولم تفعل فأمسقط علينا كسفاً من السماء
كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فانا لن نؤمن لك إلا أن يفعل ذلك ، فرأى
النبي أن مقترحاتهم ليست سوى عناد وتحذ لدعوته . فقال لهم : ما أنا بالذي
يسأل ربه هذا ، ولا بعثت لكم به وإنما جئتكم بما بعثني به فقاموا وانصرفوا
(ونزل بعد ذلك القرآن بالرد على مطالبهم)

قضية الأعمى

وفي أمر ما هو جلس إليه من وجوه قريش ؛ أبو جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمّية بن خلف والوليد بن المغيرة وعبدالله بن أبي أمّية المخزومي (أسلم بعد وهو ابن عاتكة بنت عبدالمطلب) فجعل يتلطف بهم ويؤانسهم لشدة رغبته في إسلامهم . وشكوا إليه ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد ، وقالوا : إن ماجئت به حسن إلا هذا ، فأتى بقرآن غير هذا . فحسب النبي أنه سيقنعهم فيمتدوا ، ودخل عليه عبد الله بن أم مكتوم (ابن خال خديجة) وكان رجلاً أعمى ومن سبق إسلامه ، وجعل يقول : يا رسول الله علّني مما عليك الله . فأعرض عنه ولم يجبه رجاء أن يصمت فلا يقطع حديثه للقوم ولا يرده فيحتقروا الدين باحتقاره . وألحَّ عبد الله بقوله . فعبس النبي وأعرض عنه مقبلاً على من كان يكلمه من القرشيين طمعاً في هدايتهم فحدث ما كان قد تخوف منه إذ قال أبو جهل : لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا هذا إليه وعلى أثره قال عبد الله بن أمّية : يا محمد قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل ، وسألوك أموراً ليعرفوا منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل . ثم سألوك أن تعجل عليهم بعض ما تخوفهم من العذاب فلم تفعل ، والله لن نؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلباً ثم ترقى فيه ونحن ننظر إليك ثم تعود ومعك صك من أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول . ولو فعلت ذلك وأيم الله ما ظننت أئى أصدقك . فالتفت النبي عنهم أسفاً حزيناً على ما فاتته من هدايتهم ، وانفضوا عنه غاضبين . وفي هذه الساعة جاءه الوحى ذا كراً أعراضه ، عن عبد الله بن أم مكتوم ، فنظر إليه قائلاً مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى . وصار كلما جاءه بعد ذلك يبسط له النبي رداًه ويعيد عليه قوله المتقدم .

وعبارة العتاب في قوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتفه الذكري) إنما قال بها النبي مراعاة لما يحتمله المعنى الإجمالي . ولتقريب ذلك للأذهان . والله أجل وأعدل من أن يعاقب إنساناً على أنه لم يعلم الغيب الذي اختص الله به نفسه . وأنه إن كان يطلب من النبي التبصر ، فإن رغبته في هداية من جاءه من قريش ، وعدم اتساع الوقت للتبصر جعله يبادر من عندياته بما رأى فيه مصلحة الدين .

ويرى المتدبر أن معنى هذه الآيات . والله أعلم ، حكاية واقع وإخبار باستئثار الله بالغيب ومثله : زيد فعزل كذا ولا يدري ما تقرر في علم سيده بشأن ما فعل .

ونمى إلى قريش خبر هذا المجلس فقال أبو جهل : تراحمنا نحن وبنو عبد المطلب على الشرف حتى إذا صرنا كفرنسي رهان . قالوا منا بني يوحى اليه . والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !! وقال الوليد ابن المغيرة : أنزل القرآن على محمد وأترك أنا وأنا كبير قريش وسيدها !! ويترك عروة بن مسعود سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين (مكة والطائف ورد القرآن على هذا)

امتحان قريش للنبي

ثم بعثوا النضر بن الحرث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يغريانهم بالنبي . وفهمهما اليهود فسألوهما عن أمية النبي وعمن اتبعه . فأجاباهم بأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب واتبعه السفلة منا . فضحك أحبار اليهود وقالوا : هو بعينه . ولكن ليذهب إليه كباركم فيسألوه (١) عن فتية ذهبوا في الأعصر الهالكة (٢) وعن نبأ رجل طواف (٣) وعن الروح ، فإن

أجاب على الأولين بتفصيل وأوجز عن الأخير فقديس هو ، وإلا فلا . فرجع
النضر وعقبة فأخبرا قريشاً فذهب نضر إلى النبي وسأله . فأجابهم بتلقين
الوحي عن الأول بأهل الكهف وعن الثاني بأنه ذو القرنين ، وعن الروح بأنه
من أمر الله (أى كائن يأمره)

أبو جهل والنبي

واشترى أبو جهل من رجل يقال له الإراشى (بكسر الهمزة نسبة إلى
إراشة بطن من خثعم) جمالا فمطله بشمها . فذهب حتى وقف على نادى قريش
وقال : يامعشر قريش من يعيننى على أبى الحكم بن هشام ، فإنى غريب وابن
سبيل وقد غلبنى على حقى . فقالوا (وأشاروا إلى النبي استهزاء) اذهب إلى
هذا الرجل فهو يعينك عليه . فجاءه وكان لا يعرفه وقال ، يا عبد الله إن أبا
الحكم بن هشام غلبنى على حقلى قبله وأنا غريب وابن سبيل . وسألت هؤلاء
القوم عن رجل يأخذنى بحقى منه فأشاروا إليك . فخذلى حقى يرحمك الله .
فقام النبي مع الإراشى إلى دار أبى جهل ودق الباب فخرج أبو جهل وراه
فامتقع لونه . فقال النبي : إعط هذا الرجل حقه . فذهب توأ وعاد ودفع إلى
الرجل ماله . ومر الإراشى على مجلس قريش فسأله فقال : جزاه الله خيرا
(يريد النبي) فقد والله أخذلى بحقى . ووافى أبو جهل وسأله فقال : ويحكم ،
والله مادق بابى وسمعت صوته حتى ملئت رعباً ، ولعل ذلك من كراهيتى له .

أذى قريش للنبي

وكانت قريش مع هذا التقصد والعناد لا يمتنعون عن السخرية والاستهزاء
بالنبي . فان الحكم بن أبى العاصى (أبو مروان بن أبى الحكم) كان يمشى وراءه

فيتعرج بأنفه وفمه ، ورآه النبي مرة يفعل هذا فقال : اللهم اجعل به وزغاً .
(ارتعاشاً) ومن يومئذ صار الحكم يرتعش

والعاصي بن وائل السهمي (أبو عمرو بن العاصي) كان يقول : غر محمد
نفسه وأصحابه فوعدهم أن يحيموا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرو
الأيام والأحداث . وأتاه خباب بن الأثر (الصحابي) وكان قيناً بمكة
(أي حداداً) وقد باع للعاصي سيوفاً مظهلاً بشمها . فقال : يا خباب أليس يزعم
محمد هذا الذي أنت على دينه أن الجنة ما تبغى أهلها من ذهب وفضة إلا
وجدوه ؟ قال خباب : بلى . قال : فأناظري حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك
حقك هناك أو أعطيك إياه حالا إن كفرت بمحمد ! قال خباب : لا والله
وسيميتك إله محمد ويعتلك . قال : فذري حتى أموت وأبعث .

وكان الأسود بن عبد يغوث (ابن خال النبي) إذا رآه قال : أما كلمت
اليوم من السماء يا محمد ! وإذا رأى نفرأ من المسلمين قال لمن حوله : جاءكم
ملوك الأرض الذين سيرثون كسرى وقيصر .

والأسود بن المطلب كان إذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم تغامز هو
وأصحابه وصفروا .

واجتمع نفر بالوليد بن المغيرة (والد خالد بن الوليد) في بعض المواسم .
فقال لهم الوليد : قد حضركم هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد
سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأياً ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً . قالوا :
فأقيم لنا رأياً . قال : والله ما هو بكاهن ، ولقد رأيت السكهان ، فما هو بزممة
الكاهن ولا بسجعة ! قالوا : فنقول مجنون ؟ قال : والله ما هو بمجنون . لقد
رأينا المجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته . قالوا : شاعر . قال : وما هو بشاعر
لقد عرفنا الشعر كله جزه جزه وقرضه ومقبوضه ومبسوطه . قالوا : ساحر

قال وما هو بساحر فلقد رأينا السحرة وسحروهم فما هو بنفته ولا عقده ! قالوا :
فما تقول أنت ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله
لعذق وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا كان باطلاً ، وإن أقرب
القول فيه أن تقولوا جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وأمه وأخيه
وزوجه وعشيرته ! ففعلوا يجلسون في سبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم
أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره . فصدرت العرب من ذلك الموسم
تتحدث بأمر النبي وانتشر ذكره في بلاد العرب بل في جميع الآفاق ، وكان
أبو لهب كما تقدم جار النبي ، وكثيراً ما يطرح القسدر على بابه ، فرآه أخوه
حمزة مرة يفعل ذاك ، فأخذ حمزة القدر ووضع على رأسه ، فجعل أبو لهب
ينفضه ويقول : صابىء أحق .

وكان النبي يطوف على الناس ويقول لهم : إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا
تشرکوا به شيئاً ، وأبو لهب خلفه يتبعه في مشيته ويقول : أيها الناس هذا
يأمركم أن تتركوا دين آبائكم وهو عار عليكم
ومنبه ونبيه ابنا الحجاج كان كل منهما إذا لقي النبي قال له : أما وجد الله من
يبعثه غيرك ، إن هاهنا من هو أسن منك وأيسر ، فإن كنت صادقاً فأتتنا
بملك يشهد لك ويمشي معك ! وإذا ذكر النبي أمام أحدهما قال : معلم مجنون !

النبي بوادي ركانة

وفي يوم خرج النبي من بيته صباحاً فأدى به المسير إلى واد منقطع خارج
مكة ، فلقية ركانة بن عبد يزيد بن هاشم (أسلم في عام الفتح) وكان شديد البأس
قوياً جسيماً معروفاً بالقوة في الصراع بحيث لم يصرعه أحد قط ، ولا مسَّ جنبه
الأرض مغلوباً ، وكانت العرب تحرم المرور في هذا الوادي خوفاً من ركانة

وقد اختصه لنفسه يرعى فيه غنمه ، فاعترضه رُكَّانة وقال له : أنت تشتم آلهتنا وتدعو إلهك العزيز ، ولولا رحم يبنى وبينك قتلتك ، ولكن ادع إلهك أن ينجيك منى اليوم فإنى أدعوك لأن تصارعنى وتدعو إلهك وأدعو اللات والعزى ، فان غلبتنى فلك من غنمى هذه عشرة تختارها . فأجابہ النبي وصارعه فغلبه . فقال رُكَّانة : إنك لم تصرعنى وإنما غلبنى إلهك وخذلنى اللات والعزى وما وضع جنبي على الأرض أحد قبلك ، ولكن عد فان صرعتنى فلك عشرة ثانية . فعاد وصرعه ، فقال كما قال أولاً ثم عاد وصرعه فقال: دونسكها ثلاثين من غنمى فقال النبي : لا أريد ذلك ولكنى أدعوك إلى الإسلام . قال رُكَّانة إنى أكره أن يتحدث نساء مكة وصبيانها بأنى أجبتك خوفا منك ! ولكن الغنم لك . قال النبي لاحتاجة لى بها ، وانطلق فلقية أبو بكر مذعوراً فقال: أخرج إلى وادى رُكَّانة فتبسم النبي وأخبره الخبر فعجب أبو بكر !

تعميم الدعوة

وأمر النبي بإبلاغ الدعوة جهرة « فاصدع بما تؤمر » وكان لا يزال ومن اتبعه مستخفياً بدار الأرقم . فراح يبلغ الدعوة ظاهراً ، وبالغ في التكرار بها فلم يرد عليه أحد بغير الاستهزاء ، حتى دخل المسجد يوماً فوجد قريشاً يسجدون للأصنام فهرم وقال : أبطلتم دين أبيكم إبراهيم ! قالوا إنما نسجد لها لتقربنا إلى الله ، فلم يرض وعاب فعلهم . فزاد بالجميع الحق عليه وأجمعوا على مخالفته وعداوته ، وعظف عليه عمه أبو طالب ومنعه (دافع عنه) وقام دونه . فاشتد الأمر بين القوم وأظهر بعضهم لبعض العداوة . وتشاورت قريش على من أسلم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . ومشى أبو جهل بالإغراء والتجريض . وتقسمت قريش تعذيب من أسلم . فأخذوا عمار بن ياسر وأخاه وأباه وأمه

فصاروا يكوونهم بالنار ، حتى ماتت أمه في التسكريل ، وقتلوا أباه . وكذلك فعلوا
بجباب بن الأثر القيني (الحداد) بأن أوقدوا النار وكووا بها ظهره فما أطفأها إلا
ودك (دهن) ظهره . وكانوا يكتفون بلال بن حمامة ويلقونه تحت الهجير
في القيلولة بدون طعام ولا شراب وهو يقول : أحد ، أحد . ومر عليه ورقة
ابن نوفل فقال لأمية بن خلف متولى تعذيبه . والله لئن قتلتموه لأتخذن قبره
حناناً (منسكاً ومتعبداً) فكانوا يعطونه للأولاد ، فيربطون في رقبتة حبلاً
ويطوفون به في شعاب مكة وأمرأته خلفه تبكي . وعذب عامر بن فهيرة .
وأبو فكيهة كانت توضع على بطن كل منهما صخرة على الرضاء . وصنعوا
مثل هذا مع كثير من النساء المؤمنات .

الهجرة الأولى

ورأى النبي المشركين يؤذون أتباعه ولا يستطيع أن يكفهم ، فجمع إليه
أكثرهم وقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده
أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أتمم فيه . فخرجوا إليها
خوف الفتنه وفراراً إلى الله ، وهاجر بعضهم بأهله كعثمان بن عفان وزوجته
رقية بنت النبي ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة ، وحذيفة بن
عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهل بن عمرو ، وعامر بن أبي ربيعة وزوجته
ليلي العدوية ، وهاجرت أم أيمن (بركة الحبشية مربية النبي) مع سيدتها رقية ،
وهاجر وحده عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير
وعثمان بن مظعون ، وسهيل بن بيضاء ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، وحاطب
ابن عمرو ، وعبد الله بن مسعود . وجميعهم خرجوا مشاة متسللين سرّاً ، ثم
استأجروا سفينة في البحر بنصف دينار . وبلغ الخبر قريشاً ، فخرج نفر في

آثارهم وبلغوا ساحل البحر ولم يدركوا أحداً منهم . ولما وصل المهاجرون الحبشة أكرمهم النجاشي ولم ينكر عليهم أهالي البلاد مقدمهم ، فسكنوا في هُدوء آمنين يعبدون الله لا يؤذون ولا يسمعون مكروهاً .

واشتد الضيق من قريش على من بقي من المسلمين ، فخرج أبو بكر وحده مهاجراً حتى بلغ بَرَك الغِمَاد (موضع على خمس ليال من مكة مما يلي اليمن) ولقيه ابن الدُّغْنَةِ سيد القارَّة (قبيلة من بني الهون بن خزيمه) فقال ابن الدُّغْنَةِ لأبي بكر : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال أخرجني قومي وأريد أن أسبح في الأرض وأعبد ربِّي ، قال ابن الدُّغْنَةِ : مثلك لا يُخرج ولا يُخرج ، وأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدُّغْنَةِ فطاف في أشراف قريش يقول : إن أبا بكر لا يُخرج ولا يُخرج مثله من بلده ، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على النوائب ! فلم ينكروا شيئاً من ذلك ، وأجاروا جواره ، وقالوا : مره فليعبد ربه في داره وليصل وليقرأ ماشاء فيها ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا ، فعاد ابن الدُّغْنَةِ ، واشترط على أبي بكر ما قالوا ، فلبث أبو بكر يعبد ربه سرّاً في بيته ، ثم ابتنى بفناء داره مسجداً يصلي ويقرأ القرآن فيه . فبزدحم عليه نساء المشركين وأبنائهم حتى يسقط بعضهم على بعض ، ويعجبون من قراءته وبكائه ، فشق هذا على أشراف قريش ، وأرسلوا إلى ابن الدُّغْنَةِ ، فقالوا : إن أبا بكر قد بنى له مسجداً وأعلن بالصلاة والقراءة ، فإن أحب الاقتصار على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أئى إلا أن يعلن فله أن يرد عليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفرك (نخثرك) فأتى ابن الدُّغْنَةِ أبا بكر ، وقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإذا أن

تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد على ذمتي وجواري . قال أبو بكر : إني أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله (حمايته) .

وعلم النبي بتزايد الأذى على المستضعفين من أصحابه ، فجعل يجمع كل اثنين أو ثلاثة منهم بعائلاتهم إلى بيت أحدهم يعيشون به ويرسل لهم من طعامه وشرابه ليتعاونوا على دفع من يهاجمهم بالإيذاء ، وليحرس بعضهم بعضاً حال الغيبة .

وحضر إلى الحبشة ركب من كنانة ، فأخبر أن قريشاً تصالحت مع النبي فعاد بعض المهاجرين حتى إذا صاروا على مقربة من مكة بلغهم أن قريشاً على ما هم من عداوة المسلمين . فتشاور الحاضرون منهم واتفقوا على أن يدخلوا مكة ويحدثوا عهداً بأهلهم ويعودوا . فدخل ابن مسعود بلا جوار ولبت قليلاً ورجع إلى الحبشة . ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة المخزومي . ولما رأى المشركين يؤذون المستضعفين في المسلمين الذين ليس لهم من يحميهم وهو آمن لا يدفع عنهم ولا يؤذيه أحد ، ذهب إلى الوليد فرد عليه جواره ، وقال : حسبي جوار الله . وبينما هو في مجلس من مجالس قريش وفد عليهم ليبيد بن ربيعة (اسلم بعد هذا) وأخذ مجلسه فيهم وأنشد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت . فقال ليبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان ، كذبت نعيم الجنة لا يزول ، فقال ليبيد : متى كان جليستكم يؤذى يامعشر قريش ؟ فقام رجل منهم ولطم عثمان بن مظعون فاخضرت عينه . فلامه الوليد على رد جواره وقال : قد كنت في ذمة منيعة ؟ قال عثمان : إن عني الأخرى إلى ما أصاب أختها الفقيرة . قال الوليد : عد إلى جوارك . قال : لا ، بل أرضى بجوار الله .

وعاد من الحبشة أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله المخزومي زوج أم سلمة (أمه برة بنت عبد المطلب) فدخل في جوار خاله أبي طالب . فمشى إلى أبي طالب رجال من مخزوم وقالوا : يا أبا طالب منعت منا ابن أخيك ، فمالك وصاحبنا تمنعه منا (يريدون أخذه وتغذيته) قال أبو طالب : إنه استجار بي وهو ابن اختي وأنا إن لم أمنع ابن اختي لا أمنع ابن أخي . فقام أبو لهب في وجه المخزوميين وقال لهم يامعشر قريش لا تزالون تعارضون هذا الشيخ في جواره من قومه ؟ لتنتهن أو لأقوم من معه في كل مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد . فنفروا خوفاً من أن يصير أبو لهب إلى نصرته النبي . وطمع أبو طالب في أن يكون أبو لهب معه في نصرته النبي ، وأنشأ آياتاً يحرضه فيها على نصرته فلم يتأثر بها .

الهجرة الثانية

وتبين للمسلمين الذين رجعوا من الحبشة شدة معارضة قريش فرجعوا إلى الحبشة (وتسمى الهجرة الثانية) وهاجر عامة المسلمين فاجتمع منهم في الحبشة ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانى عشرة امرأة. فيهم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش ، وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان . وهناك تنصر زوجها ومات على النصرانية ، وبقيت أم حبيبة على إسلامها . وأسلم أبو موسى الأشعري في قومه باليمن قبل أن يرى النبي ، وبلغه أنه خرج مهاجراً إلى الحبشة ، فخرج أبو موسى في خمسين رجلاً من قومه على سفينة مهاجرين إليه . وهناك وجدوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالإقامة معهم فوافقوه وأقاموا معه بالحبشة .

المسلمون في الحبشة

وبلغ قريشاً أن أتباع محمد يقيمون عند النجاشي على أحسن مقام وبخير دار عند خير جار . فبعثت قريش خلفهم عمرو بن العاص وعمار بن الويلد ابن المغيرة المخزومي (الذي أحب قريش دفعه إلى أبي طالب بدل محمد) وبعثوا معهم فرساً وجبة من الديباج هدية للنجاشي . وهدايا إلى جماعة من عظماء الحبشة ليردوا من جاء إليهم من المسلمين . ودخل عمرو وعمار على النجاشي فسجدوا له وقدموا هديتهما فقبلها . فقالا : إن نفرا من بني عمنا نزلا أرضك راغبين عنا وعن آلهتنا . ولم يدخلوا في دينكم بل جاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش ليردوهم إليهم قال وأين هم ؟ قالوا : بأرضك ، فأرسل من طلبهم . وقال عطاء الحبشة : تدفع إليهم أصحابهم فهم أعرف بحالهم . قال النجاشي : لا والله حتى أعلم على أي شيء هم . قال عمرو بن العاصي : إنهم لا يخرون (يسجدون) لك ، ولا يحيونك كما يحييك الناس إذا دخلوا عليك رغبة عن سنتك ودينك .

وأقبل المسلمون على اتفاق أن يكون جعفر بن أبي طالب خطيبهم وقد كان النجاشي دعا أساقفته ، وأذن بدخول جعفر ومن معه ، فدخلوا وسلموا قال عمرو ابن العاص : ألا يرى الملك أنهم مستكبرون ولم يحيوك بتحتيتك « يعني السجود » قال النجاشي لجعفر : ما منعكم أن تحيوني بتحتيتي فتسجدوا لي ؟ قال جعفر : إنا لا نسجد إلا لله تعالى . قال : ولم ذلك ؟ قال أرسل الله فينا رسولا أمرنا أن لا نسجد إلا لله تعالى وقال : إن تحية أهل الجنة السلام فحييناك بالذي يحيى به بعضنا بعضاً وأمرنا بالصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي (لأن صلاة الخمس كانت لم تفرض ، وأمرنا بالزكاة يريد مطلق الصدقة لأن زكاة المال كانت لم تفرض قال عمرو للنجاشي : إنهم يخالفونك في ابن مريم العذراء ولا يقولون إنه ابن

الله . قال النجاشي لجعفر : وما تقولون في ابن مريم وأمه ؟ قال جعفر : نقول ما قال الله « روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم » قال النجاشي : ما زادوا على إجماع القساوسة ، اللهم إنه لصدق ، قال جعفر : فليسألهم الملك . أعيدن نحن أبقنا (شردنا) يريدون ردنا إلى أربابنا ؟ أم أرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ أم أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا القضاء ؟ قال عمرو : لا والله بل هم أحرار ولا دم ولا دين عليهم . قال النجاشي لجعفر : انطلقوا فوالله لا أسلم فيكم أبداً . إذهبوا فأتتم آمنون ومن نظر إليكم بأذى فقد عصاني ، ومن سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم (قالها ثلاثاً) وأمر بهدية عمر ورفيقه فردت ليهما . وقال : ما أحب أن يكون لي جبل من ذهب وأنا أودى رجلا من هؤلاء . ولا حاجة لي بهديتكم . فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملسكي فأخذ الرشوة ؛ وما أطاع الناس لي فأطيعهم فيه ، فأنصرف الجميع . ومكث عمرو وعمارة في الحبشة أياماً أصيب فيها عمارة بن الوليد بجحشون أفضى به إلى ترك زوجته وهيام على وجهه مع الوحش في الجبال إلى أن مات بعد زمن ، ورجع عمرو بن العاص .

عمر بن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب قوياً شديداً البأس شجاعاً فتاكاً ، قوى الشكيمة حراً جريئاً على المخاطر ، يفعل ما يقول ، لا يخاف أحداً ولا يخشى جماعة . وكانت قريش تهابه وتتجنب خصومته وعداءه ، وكان دائب الشغل بالتجارة إلى الشام وبلاد الفرس لا يقيم بمكة إلا أياماً معدودة ورجع من سفر في هذه الأيام (أي أيام اشتداد الخصومة بين قريش والنبي) فلقى رجل من قريش فقال له : أين تذهب يا عمر ، إنك تزعم أنك هكذا (وأشار إلى حبر) في دينك ، فانظر فان محمد بن عبد الله أفسد علينا ديننا وسب آلهتنا وسفه أحلامنا ، قال عمر :

إنما فرغت لهذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسأقتله ، وذهب
 فلقبه سعد بن أبي وقاص . فقال : إلى أين يا عمر ؟ قال أريد أن أقتل محمداً : قال
 سعد أنت أصغر وأحق من ذلك . تريد أن تقتل محمداً وتدعك أو تدعك بنو
 عبد مناف على الأرض ؟ قال عمر : ما أراك إلا قد صبأت فأبدأ بك فأقتلك
 قال سعد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فاستل عمر سيفه ووسل
 سعد سيفه وتقاربا حتى كادا يختلطا . وطلع عليهما نعيم : فقال : ماذا يا عمر ؟
 قال : إن سعداً قد صبأ ولا بد من قتله . قال نعيم : وما لك لا تفعل هذا بجنتك
 (صهرك) وبأختك ؟ قال صبأ قال نعيم ؟ نعم ، فزاد غضب عمر وأغمد
 سيفه . وقفل مسرعاً إلى بيت أخته أم جميل زوجة سعيد بن زيد . وقرع
 الباب . وكان سعيد وزوجته وخباب بن الأثر الذي ضم إليها يقرؤون صحفاً
 من القرآن . فلما سمعوا صوت عمر تبادروا إلى الاختفاء ونسوا الصحف في
 موضع جلوسهم . وفتحت أم جميل الباب . فقال عمر : قد بلغني ياعدوة نفسها
 أنك صبأت . فظهر له سعيد زوجها ، وقال : وما لك أنت وهذا ؟ فقام عمر
 وأخذ برقة سعيد وضرب به الأرض وجلس على صدره . فجاءت زوجته
 تكف عمر عنه فلطمها لطمه شج بها وجهها وسال دمها . فبكت وقالت :
 أتضربني يا عدو الله على أن أؤحد الله . لقد أسلمنا على رغم أنفك فما كنت
 فاعلاً فافعل ! وكأنما قد هدأت نفس عمر لما رأى دم أخته . فقام عن سعيد
 وجلس . ونظر فاذا بصحف ملقاة في ناحية . فدیده لينظر فيها (وكان قارئاً)
 فقالت أخته لا تمسها فانك لست من أهلها قال عمر : عهداً على أني أردّها
 وتناول صحيفة قرأ فيها « بسم الله الرحمن الرحيم ، فظفر عمر شاخصاً يتفكر .
 وقرأ « سبح لله ما في السموات والأرض . حتى بلغ . آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا

مما جعلكم مستخلفين فيه » فأرسل الصحيفة برفق وهدوء وتناول الثانية فقرأ بها « طه » ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله الا هو له الأسماء الحسنى » فرفع عمر جبهته وفتح عينيه وقال من هذا فرقت قريش وعاد فقراً « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » فأخذ يفكر طويلاً كأنما هو يصغى إلى حديث . ووضع الصحيفة بجانبه وتناول الثالثة ففتور فقراً « إذا الشمس كورت . وانتهى إلى ؛ علمت نفس ما أحضرت » فوضع يده عند أنفه . وجلس هنيهة يتأمل ثم قال بهدوء دلونى على محمد قالت أخته إنه فى أسفل الصفافسار اليه فى دار الأرقم حيث كان النبى محتفياً بأصحابه فقرع الباب فقبل من هذا ؟ قال ابن الخطاب وقد علموا من قبل شدته فما اجتراً أحد على فتح الباب . فقال النبى : افتحوا له . فان يرد الله به خير أيده . قال حمزة وإن يرد غير ذلك فقتله علينا هين - وما فتح الباب وتخطى عمر خطوة حتى لزم عمر يمينه والوزير شماله ودنا من النبى ، فقال : أرسلاه ، اللهم اهد عمر ثم قال له اجلس يا عمر . فجلس متلطفاً فقال النبى : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ قال : جئت لأكون فى جملة أتباعك وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ففرح النبى والحاضرون واستبشروا .

فلما اطمأن فى جلوسه قال ألسنا يارسول الله على الحق إن متنا وإن حيينا قال النبى : بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متتم وإن حييتم . قال عمر : فقيم الخفاء يارسول الله قال يا عمر : إنا قليل وقد رأيت ما لقينا . قال عمر والذى بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان . وذهب فجاء خاله أبا جهل ودق عليه الباب . فقال : من ؟ قال : عمر

ابن الخطاب . . فخرج مبتدراً وقال : مرحبا وأهلا يا ابن أختي . ما جاء بك ؟ قال جئت لأبشرك ببشارة . قال أبو جهل : وما هي ؟ قال عمر : ذلك أني أمنت بالله وبرسوله محمد بن عبد الله وصدقت ما جاء به فضرب الباب في وجه عمر وقال : قبحك الله وقبح ما بشرتني به . فتركه عمر وسار إلى جميل بن حبيب وكان معروفا بسرعة نقل الحديث . فقال له : أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ فمأرجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر . فقام على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ وجعل عمر في خلفه يقول رافعاً صوته كذب ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فخرج القوم كالنحل . فزالوا يضربون عمر ويضربهم . وأقبل أبو جهل على الصباح فقال . ما هذا ؟ قالوا : ابن الخطاب فقام على الحجر وأشار بكفه ، ألا إني أجرت ابن أختي فأنكشف الناس عنه ووثب عتبة بن ربيعة على عمر فالتقاه عمر على الأرض وبرك عليه ووضع إصبعيه في عينيه فجعل عتبة يصيح . ولا يدنو منه أحد إلا أخذ عمر بشرا سيفه (أطراف أضلاعه) . ففلاه الناس وانصرفوا ورجع عمر إلى داره . فأتاه في الصباح العاصي بن وائل السهمي (أبو عمرو بن العاصي) وعاليه حلة حبرة وقيص مكفوف بحرير . فقال : ما بالك يا عمر ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوني لأنني أسلمت ، قال . قد أمنتك ولا سبيل إليك وخرج العاصي فاذا الناس يسيل بهم الوادي . فقال أين تريدون ؟ قالوا : ابن الخطاب الذي قد صبأ . قال : لا سبيل إليه . فرجع الناس وانصرفوا . وما لبث العاصي أن رجع إليه عمر ورد إليه جواره .

دخول أبي طالب الشعب

وفي الغدوة جاء عمر إلى النبي يراجع في الخروج من دار الأرقم إلى المسجد وألحف حتى وافقه على ذلك . وخرجوا يسرون صفوفاً . وعمر في مقدمتهم وحمة في آخرهم . ودخلوا المسجد ، ونظرت قريش إليهم فأصابهم كآبة لم يصيبهم مثلاً . وتداعوا إلى نأديهم فقالوا : قد أفسد محمد أبناءنا وأولى بنا أن نجتمع منادية مضاعفة فنعطيهما رجلاً من غير قريش ليقته ونريح أنفسنا وأهلنا . وبلغ أبا طالب ذلك فجمع بني هاشم وبني المطلب وأمرهم فدخلوا شعبهم « إلا أباهب » ، ودخل معهم النبي بعد أن أمر كثيراً ممن آمن بالمهاجرة إلى الحبشة ، وهي الهجرة الثالثة ، فهاجروا وإنما منع النبي من أولئك من كان كافراً حمية على عادة العرب في المناصرة . وأمر أبو طالب النبي أن يأتي فراشه كل ليلة من أول الليل ليراه من أراد به شراً أو غائلة ؛ فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو أخواته أو بني عمه أن يضطجع على فراش النبي ، ويأمره هو أن يأتي بعض فرشهم فيرقده عليها .

مخالف قريش ضد بني هاشم

وعلمت قريش حرص الهاشميين فاتهموا بالمحصب أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبدالمطلب ؛ أن لا يتكحوا إليهم (لا يتزوجوا منهم) ولا يتكحوهم (لا يتزوجوهم) ولا يبيعوا ولا يبتاعوا منهم شيئاً ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا محمداً للقتل . فكتبوا من ذلك صحفاً ابتدأوا جميعها بكلمة : باسمك اللهم . انفقت قريش على كذا وكذا وأخذ كل جماعة صحيفة وعلقوا صحيفة في السكبة . وكان لا يصل أبا طالب

والنبي ومن معها ميرة ولا مارة ولا شيء . فإذا جاء الموسم يخرجون لأجل
الحج فلا يمتنعون . ويأتى أحدهم ليشتري طعاماً فلا يسمح له . حتى أكلوا الخبط
ورق الشجر إلى ثلاث سنين . وعلمت قريش أن في السر من يقوم لهم
ببعض معونة فترصدوا ذلك ، فعثروا في ليلة على ثلاث أجمال من الطعام قد أرسلها
إلى بني هاشم والمطاب هشام بن عمرو العامري « اسلم بعد ذلك ، فشئت إليه
قريش في الصباح وكلوه فقال : إني غير عائد لشيء خالفتكم فيه فانصرفوا عنه
وعاد الثانية فأدخل حملين فغالظته (أغلظت له القول) قريش وهمت بقتله .
فقال لهم أبو سفيان بن حرب : دعوه . رجل وصل أهله ورحمه . أما إني
أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا . فغضب القوم وتفرقوا على
ضغن . وعلموا بأن حكيم بن حزام « ابن أخي خديجة ، يصل الشعبيين . وقد
لقبه أبو جهل ومع حكيم غلام يحمل قمحا يريد به عمته . فقال له أبو جهل :
تذهب بالطعام لبني هاشم . والله لا تمتنع حتى أفضحك بمكة . وحضرهما أبو
البختری فقال لأبي جهل : مالك وماله ؟ قال أبو جهل . إنه يحمل الطعام لبني
هاشم فقال أبو البختری طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيا به ؟ خل سبيل
الرجل . فأبى أبو جهل ونال أحدهما من الآخر فضرب أبو البختری أبا جهل
فشجه ووطئه أشديداً فانكف عن ذلك .

تمزيق صحائف المحالفة

إلى يوم جاء النبي أبا طالب وأخبره بأن الإرضة أكلت كتابة صحائف
اتفاق قريش ولم تبق منها إلا على اسم الله فقال أبو طالب : أربك أخبرك بهذا ؟
قال : نعم . قال أبو طالب . والثواقب ما كذبتنى قط . ثم قام في عصاة من
بني هاشم والمطلب حتى أتوا المسجد . فأنكر قريش ذلك وظنوا أنهم خرجوا

من شدة البلاء ليسلوا النبي إليهم . فقال أبو طالب : يا معشر قريش جرت بيننا وبينكم أمور لم تذكر في صحيفتكم . فأتوا بها عسى أن يكون بيننا وبينكم صلح . فأتوا بها وهم لا يشكون أن أبا طالب يدفع إليهم النبي . فوضعوها بينهم . وقبل أن تفتح قالوا لأبي طالب : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم . فقال : إنما أتيتكم في أمر هو نصف بيننا وبينكم . إن ابن أخي أخبرني ، ولم يكذبني أن الله قد بعث على صحيفتكم دابة أكلت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم . ولم تترك سوى اسم الله تعالى . فإن كان كما يقول فأيقوا وأقلعوا عما أنتم عليه — أما عنه فوالله لا نسله حتى نموت عن آخرنا ، وإن كان ما يقول باطلا دفعناه إليكم فقتلتكم أو استحيتكم (أبقيتم) فقالوا أرضينا . وفتحوا الصحائف فوجدوا سطورها قد أكلت ولم يبق إلا كلمة « باسمك اللهم » فقال أبو طالب . فعلام نحبس ونحصر وقد بان الأمر وتبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة . وقام ومن معه ودخلوا بين أستار السكبة . وقالوا بحيث تسمع قريش : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل منا ما يحرم عليه . ثم انصرفوا .

كان هذا باعثاً بهشام بن عمرو « أسلم بعد ذلك » لأن يمشي بعد أيام إلى زهير بن أبي أمية « أسلم بعد ذلك » فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وأحوالك حيث هلت ؟ قال زهير : ويحك يا هشام ، وماذا أصنع ؟ فأنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقض الاتفاق . فقال هشام : أنا معك . فقال : أبغنا ثالثاً . فقاما إلى مطعم بن عدي فقالا : أرضيت أن يهلك بطنان من بني مناف وأنت شاهد ؟ فقال مطعم : إنما أنا واحد . قالوا : فانا معك . قال : أبغنا رابعاً ، فذهبوا إلى أبي البختری

فقال . أبغنا خامسا . فذهبوا إلى زمعة بن الأسود فوافقهم على ذلك . وباتوا بأعلى مكة وتعاهدوا وتعاهدوا على نقض تلك الصحيفة وإخراج بني هشام من الشعب . وقال زهير : أنا أبدؤكم وأكون أول متكلم . وأصبحوا فغدوا إلى أنديتهم وعلى زهير حلة فطاف بالبيت . ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة : أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هاشمي لا يبتاعون ولا يبتاع منهم . والله لا أقعد حتى تمزق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، فقال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ما رضىنا كتابتها حين كتبت . وقال أبو البخترى . صدق زمعة . فقال مطعم ابن عدي صدقنا وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها وما كتب فيها . وقال هشام : ونبرأ مما فصلنا عن أهلنا . قال أبو جهل : هذا أمر قضى بلبيل واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال . فقام مطعم إلى الصحيفة فشققها وقام الخمسة ومعهم جماعة فلبسوا السلاح . ثم خرجوا إلى بني هاشم والمطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا .

وفاة أبي طالب وخديجة

في هذه الأيام مرض أبو طالب واشتد به المرض ، فجمع إليه بني هاشم والنبي معهم ، وقال لهم : يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال النبي : يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال : وما تريد يا ابن أخي ؟ قال : أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهدك بها عند الله . قال : والله يا ابن أخي لو لا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أني إنما قتلها جزعاً (خوفاً) من الموت لأقررت بها عينيك لما أرى من شدة وجدك بها ، لكني أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم

وعبد مناف (وفيه نزل قوله : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ثم توفي .

وتوفيت بعده بخمسة أيام السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي ، فحزن على الاثنين حزناً شديداً ، ونزل في حفرة خديجة ودفنها بيده ، وقد عاشت معه خمساً وعشرين سنة ، وقالت له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون : أراك قد حزنت لفقد خديجة : قال : أجل أم العيال وربة البيت .

زواج النبي

ورجعت إليه خولة بنت حكيم بعد أيام فقالت : ألا تتزوج ؟ قال : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ، قال فن البكر ؟ قالت : أحق خلق الله بك عائشة بنت أبي بكر ، قال : ومن الثيب ؟ قالت سودة بنت زمعة بن الأسود (وكانت متزوجة بالسكران ، أسلم وهاجر بها إلى الحبشة ، ثم رجع ومات بمكة) وقد آمنت بك واتبعتك . قال : فاذكرهما علي . فذهبت خولة ودخلت على سودة فقالت : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ قالت سودة : وما ذاك ؟ قالت أرسلني رسول الله أخطبك عليه . قالت : وددت ذلك ، ادخلي على أبي فاذكرى ذلك له ، وكان زمعة (أحد الخمسة في مسألة الصحيفة ولم يسلم) شيخاً كبيراً باقياً على دين قومه . فدخلت خولة عليه وحيته بتحية الجاهلية ، فقال زمعة : من ؟ قالت : خولة بنت حكيم . قال : فما شأنك ؟ قالت : أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة . قال : كفء كريم ، وما تقول صاحبك ؟ قالت : تحب ذلك . قال : ادعها إلى . فدعتها . قال زمعة : أي بنية ، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ،

أفتحيين أن أزوجك منه؟ قالت: نعم. فقال لخولة: ادعيه. فجاء النبي فزوجه سودة ودخل بها.

وذهبت خولة إلى أم رومان أم عائشة فقالت لها: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قد أرسلني رسول الله لأخطب عليه عائشة. قالت أم رومان: انتظري أبا بكر. وجاء فذكرت خولة له الأمر. قال أبو بكر: مكانك. وقام فقابل مطعم بن عدى، وكان قد خطب عائشة لولده جبير. وقال له: ما تقول في أمر هذه الجارية التي ذكرتها على ابنك جبير، فنظر مطعم إلى امرأته وقال: ما تقولين؟ قالت لآبي بكر: لعلنا إن نكحنا هذا الفتى اليكم يا أبا بكر تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟ فقال أبو بكر لمطعم: وأنت ماذا تقول؟ قال: إنك لتسمع ما تقول (أى قولى مثل قولها) فقام أبو بكر ورجع إلى خولة فقال: ادعى لى النبي. فدعته وعقد له على عائشة وهى بنت ست سنين وأجل الدخول بها.

حمية أبي الذهب

بعد أن مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي ونالت من إبنائه ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب. حتى لقد دخل يوماً بيته والتراب على رأسه فقام إليه بعض بناته وجعلت تزيل التراب وتبكي، وهو يقول لها: لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك.

وخرج يوماً إلى المسجد فتهجمت قريش عليه. فقال: ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب، ما أسرع يا عم ما وجدت فقدك. فقام إليه أبو لهب وقال: يا محمد امض لما أمرت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً، إنهم واللات والعزى لا يصلون إليك حتى أموت، فلم يجبه النبي بشيء.

وانصرف . وأذاع أبو لهب نصرته له . فلم يزل أبو جهل وعتبة بن أبي معيط وغيرهما من أشراف قريش يحتالون على أبي لهب حتى صدوه عن ذلك ، وعاد إلى ما كان عليه ، وأجمع معهم على معاداته ومقاطعته .

النبي في الطائف

بلغ النبي إجماع قريش وتأمرهم على إخراجه من مكة والفتك به ، فخرج إلى الطائف ومعه مولاة زيد بن حارثة ، وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قرابته وعشيرته . وخاصة من أبي لهب وزوجته يلمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا ويناصروه على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه . وأخبرت قريش بخروجه إلى الطائف فأجمعوا على منعه من دخول مكة وصدده عنها إذا أرادها .

وعمد النبي إلى أشراف الطائف وساداتها وكانوا إخوة ثلاثة عبد ياليل واسمه كنانة ، ومسعود واسمه عبد كلال (بضم الكاف) وحبيب أولاد عمر ابن عوف الثقفي . فجلس إليهم وكلهم فيما جاءهم به من نصرتهم إلى الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال أحدهم : إني لأمرط (أشق وأقطع) ثياب السكبة إن كان الله أرسلك . وقال الثاني : ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلبك أبداً ، لأن كنت رسولاً من عند الله كما تقول لأنك أعظم خطراً (أى قدراً) من أن أرد عليك الكلام . وإن كنت تكذب ما ينبغي لي أن أكلبك ، وقال الثلاثة : أخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض ، عنهم وقد ينس من خيرهم . . وقال لهم : اكنتموا على ، كراهة أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه .

ولما بعد عنهم أغروا عليه سفهاءهم وعبيدهم ، فجعلوا يسبونونه ويصيحون به

فاجتمع عليه الناس ووقفوا صفيين على طريقه . فكان لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضحوهما بالحجارة . حتى أدموا رجله واختضبت نعلاه بالدماء ، وهم يضحكون عليه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج رأسه شجاجاً . ولا زالوا ورجلاه تسيلان دماً إلى أن لجأ إلى حائط (بستان) فاستظل في حبله (شجرة السكرم) وقال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين إلى من تكلى ، إلى عدو بعيد يتجهمني ، أم إلى صديق قريب ملسكته أمرى ، إن لم تسكن غاضباً على فلا أبالي إن فضلك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل في غضبك أو يحل علي منخطك . ولك العقبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك .

وكان صاحباً البستان عتبة وشيبة بن ربيعة يريانه . فتحركت له رحمهما (لأنهما من بني عبد شمس بن عبد مناف) فبعثا له قطعاً (عنقوداً) من العنب في طبق مع خادم يدعى عداساً وكان نصرانياً وقالوا له : اذهب به إلى ذلك الرجل . فلما وضع الطبق بين يدي النبي مد إليه يده وقال : بسم الله الرحمن الرحيم . وأكل فنظر إليه عداس وقال : مثل هذا الكلام لا ينطق به أهل هذا البلد . فقال له النبي : من أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني من هل نينوى (بلد قديم مقابل للهوصل) فقال النبي : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ابن متى . فكيف عرفته وأنت أمي في أمة أمية ؟ قال ذاك أخي وهو نبي مثلي ، فأكب عداس على رأسه ويديه يقبلها . ونظر إليه ابنا ربيعة فقال أحدهما للآخر - لقد أفسد عليك غلامك وجاءهما عداس فقالا له : ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ؟ قال .

ما في الأرض خير منه ، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي .

الجن في نخلة

أما النبي فصلى ركعتين بموضعه بالطائف وسار فنزل نخلة (موضع بقرب مكة) ودخل عليه الليل فقام تحت الظلحاء فصلى ركعتين ثم بدأ يقرأ على مهل فسمع بالوادي نهضة وأنيباً بقية الليل . وفي صباحها جاءه الوحي يقرأ له سورة الجن وفيها أنهم سمعوا القرآن . . وآمنوا به .

(والجن نوع له جسم ناري عاقل ناطق مخلوق من كثيف المادة وخفيفها الشفاف القوى يحس ويسمع ، ولكن لا يرى إما لخاصية في هذه الأجسام أو لقصور في أبصار البشرية . وفي القرآن . إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . ونزل القرآن بحكاية ما قالوا حين سمعوا النبي يقرأ القرآن بقوله :

قل (يا محمد فيما تقرأ) أوحى إلى أنه استمع نفر (جماعة) من الجن . فقالوا ، إنا سمعنا قرآناً عجباً (في حكمته وأسلوبه) يهدي إلى الرشـد (الصواب) فأما (صدقنا) به ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد (عظمة) ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً (الجاهل فينا) على الله شططاً . (خروجاً عن الحقيقة) وأنا ظننا (من ظننا بعد نزول القرآن) أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن (كان من المعتاد في العرب أن الرجل إذا نزل وادياً يخافه قال أعوذ بعظيم هذا الوادي من كل شيء مؤذ . يريد كبير الجن في الوادي) فزادوهم رهقاً (فيزيد الإنس جماعة الجن بتعوذهم هذا ضلالاً مزيداً في ذنوبهم) وأنهم ، (الجن) ظنوا كما ظننتم (يامعشر الإنس) أن لن يبعث الله أحداً

(إشارة من الله إلى انطباق عقيدة مشركي معتقد الإنس في هذه الأيام) وأنا لمسنا (كناية عن القرب أى جئنا عن قرب) السماء (هذا المرتفع العالى) فوجدناها (بحسب وجدانهم وإحساسهم) ملئت حرساً شديداً (مانعاً مؤثراً فينا بالخوف) وشهباً (شظايا كهربائية محرقة) وأنا كنا (قبل هذا) نقعد منها (نربص بقرب السماء في ناحية من الأجواء) مقاعد (نتفرغ وتخلي) للسمع (أى للاستماع من أجل الاستدلال بواسطة مانسمع من حركات تقابل الأفلاك على ما يحدث تحت الشمس ، فلا نجد مانعاً . وقد مضى زمن هذا التربص) فمن يستمع (يتعرض للتسمع) الآن يجد له شهاباً رصداً . (حاضر أخصيصاً ينقض عليه ويصديه) وأنا لا ندرى أشرأريد بمن في الأرض (وقد منعت الجن عن التماس أخبار السماء) أم أراد بهم ربهم رشداً (خيراً)

دخول النبي مكة

وأقام النبي بنخلة أياماً . ثم أراد دخول مكة . فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه . ثم سار حتى انتهى إلى حراء فوجد عبد الله بن الأريقط فبعثه إلى الأخنس بن شريق الثقفي ليجيره . فاعتذر الأخنس وقال : إني حليف والحليف لا يجير (وفي عادة العرب أن المحالف يجير ، ولكن الأخنس أراد التخلص) ثم بعث النبي لسهيل ابن عمرو العامري ، فجاء واعتذر بقوله : إن بني عامر لا تجير على بني كعب (أى لا تجيز جوارها) فبعث إلى مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يقول له : إني داخل مكة في جوارك . فقام مطعم وأولاده الستة وتسلموا

وركب مطعم على راحلة وجعل ينادى : يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يؤذه أحد منكم . وبعث إلى النبي أن أدخل ، فدخل المسجد وطاف بالبيت . وهناك أربعة من أولاد مطعم في أركان البيت . واحتبى الباقر بجائل سيوفهم في المطاف مدة طواف النبي . وكذا أبوهم مطعم ، وأقبل أبو سفيان على مطعم وقال له : أيجير أنت أم تابع ؟ قال : بل يجير فقال إذن لا تخفر خفارتك وقد أجرنا من أجرت ، وقضى النبي طوافه ورجع إلى بيته .

ضماد بن ثعلبة

كان ضماد بن ثعلبة الأزدي صديقاً للنبي قبل البعثة ، وكان يغيب في قومه ثم يقدم وافداً إلى مكة فقدم مرة في أول مبعثه ، وسمع الناس يقولون فيه ما قالوا من نسبته إلى السحر أو السكهاة أو الجنون . وكان ضماد عاقلاً يطيب ويرقى في الجاهلية فأثاه وقال إني راق فهل بك من شيء فأرقيك ؟ فقال النبي : الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . فقال ضماد : أعد لكها تلك هذه فأعادها فقال هات يدك أبايعك وآمن به وصدق

الطفيل الدوسي

وقدم مكة الطفيل بن عمر الدوسي . وكان شريفاً في قومه وشاعراً ونبيلاً ، فشى رجال من قريش وشكوا إليه النبي . فغدا إلى المسجد فإذا النبي قائم يصلي عند السكبة فسكت حتى انصرف . واتبعه فقال له : إن قومكذكروا عنك شيئاً . فأعرض على أمرك . فعرض عليه الإسلام ، وتلا عليه

آيات من القرآن . فقال : والله ما سمعت قط قولاً أحسن من هذا ولا أمراً أهدل منه وأسلم ، وقال للنبي : يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي . وأنا راجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وقد يغلبني على دوس حبهم الزنا فادع الله لهم . فقال : اللهم اهد دوساً ، ورحل الطفيل من يومه (وسياق بهم مسلمين في وقعة خيبر)

الأمراء

واستيقظ النبي في ليلة على نداء فهب من مرقده واعتلى دابة خصيصة سرت به إلى بيت المقدس ، وهناك التقى ببعض الأنبياء فصلى بهم . ثم عاد إلى فراشه والصبح لم يتنفس . وأصبح فأخبر بمشواه أم هانئ بنت أبي طالب (أخت علي) وأنه يريد أن يخرج فيخبر قومه بذلك إظهاراً لقدرة الله وإدلالاً على علو مقام النبوة ، فتعلقت أم هانئ بردائه وهي تقول : أنشدك الله يا ابن عم أن لا تحدث بهذا قريشاً فيسكذبك من صدقك . فضرب يده على رداءه فانزعجه منها وذهب ، فأرسلت خلفه جاريته نبقة (أسلمت) وقالت لها : اتبعيه فانظري ماذا يقول . ودخل النبي المسجد وجلس ، فذكر أن الناس يسكذبونه ، ولسكنه كره أن يكتم ما هو دليل على قدرة الله وشاهد لذاته بالكرامة ، فحزن ومر به أبو جهل ورآه مكتئباً فجلس إليه وقال مستهزئاً : هل كان من شيء ؟ قال النبي : نعم أسرى في الليلة . قال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قال أبو جهل وأصبحت بين ظهرانيها قال : نعم ، فلم ير أبو جهل أن يكذبه فينكر ما ذكره بحضور قريش . فقال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ قال : نعم فنأدي أبو جهل بعالي بصوته يامعشر بني كعب بن لؤي فانفضت له المجالس وجاؤا فجلسوا إليه . . قال أبو جهل للنبي : حدث قومك بما حدثتني . قال

النبي : أسرى بي . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس حيث صليت
بعض الأنبياء : وكانوا يعلمون أنه لم يدخل بيت المقدس قط ، ولما سمعوا
ذلك منه ضجوا وأعظموا الأمر . وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده
على رأسه تعجباً . وأرسلوا وراء أبي بكر . ثم قال مطعم بن عدي : إن أمرك
يا محمد كان قبل اليوم يسيراً غير قولك اليوم فإنه يشهد أنك كاذب نحن نضرب
أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدرأ شهراً . وتزعم أنك
أتيته في ليلة واحدة !! واللات والعزى لا أصدقك . وحضر أبو بكر وأخبر
بقول مطعم . فقال لمطعم : بئسما قلت لابن أخيك جبهته (استقبلته بمكروه)
وكذبتة أما أنا فاشهد أنه صادق ، قال مطعم : أتصدق أنه ذهب إلى بيت
المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟ قال أبو بكر : نعم . لأنني أصدقه في ما هو أبعد
من هذا أصدقه في خبر السماء في غدوه ورواحه . يخبرني أن الخبر يأتيه من
السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فمجيء الخبر من السماء
بواسطة الملك أعجب مما تعجبون له . قال مطعم : صف لنا يا محمد بيت المقدس
(يريد تكذيبه) وقال أبو بكر (يقصد إقامة البرهان على قومه بظهور
صدق النبي) إني يا رسول الله قد جئت بيت المقدس فصفه لي ؟ فجعل النبي
يقول : باب منه في موضع كذا ، وباب منه في موضع كذا . وأبو بكر
يقول صدقت ومن يومئذ سماه النبي بالصاديق ، حتى أتى على آخر أوصافه .
وكاد يفتن بعض من آمن حتى سمعوا البقية . وقال كثير من قریش : وما
آية (علامة) ذلك ؟ وهل رأيت في مسراك وطريقك ما نستدل منه على صدقك
فقد يكون وصفك لبيت المقدس إنما حفظته ممن ذهب إليه . قال النبي :
آية ذلك أني مررت بغير فلان بوادي كذا فأنفر غيرهم حس الدابة (التي

كان يركبها) ونَدَّ (ضل) لهم بعير فدللتهم عليه وأنا ذاهب إلى الشام . ولما كنت بمحل كذا مررت بعير فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فعثرت الدابة بالإناء فقلب القدح بما فيه . وانتهيت إلى عير بني فلان فنفرت من الدابة ، وبرك منها بعير لا أدري كسر أم لا . وسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد . فقالوا : ومتى تجيء عير بني فلان ؟ قال يوم كذا يقدمهم جمل أوزق عليه مسح آدم وغرارتان ، فقدمت العير في اليوم الذي عينه . ولما قدم أصحاب العير التي سماها ذكروا الحال فكان وفق ما نطق النبي .

طلب النبي الاحتماء بالقبائل

وكان النبي منذ أمر بتعميم الدعوة ونشرها يوافي الموسم كل عام فيتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف يسأل عن القبائل ومنازلها ، ويأتى إليهم في أسواق الموسم وهي : عكاظ . وجنة . وذو المجاز . وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال وتجيء إلى سوق جنة فتقيم عشرين يوماً . ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم أيام الحج . فكان النبي يعرض نفسه عليهم ويدعوهم لأن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه . فيقول : ألا رجل يعرض على قومه . فان قريشاً تمنعوني أن أبلغ كلام ربى .

وجاء بني كندة وبني كلب وبني عامر بن صعصعة فقال : إني رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أنبئ عن الله ما بعثنى به . فقال أحد بني كندة : أ رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظفرك الله على من خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال الأمر إلى الله

يضعه حيث يشاء . فقال الكندي : أنهف نخورنا (نجعل نخورنا موضع رماية) للعرب دونك . وإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك . وأبوا جميعهم عليه .

وأتى بنى عبس وبنى سليم وبنى محارب وبنى فزارة وبنى مرة وبنى النضر وبنى عذرة والحضارمة . فردوا عليه أقبح رد ، وقالوا : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك . وكان بنو ثقيف وبنو حنيفة (أهل اليمامة وقوم مسيلة الكذاب) أقبح في الرد عليه .

ووقف مع أبي بكر وعلى بن أبي طالب على جماعة . فسألهم أبو بكر — ممن القوم ؟ قالوا : من شيان بن ثعلبة . فالتفت أبو بكر إلى النبي وقال : بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر (أى سادة) القوم . وكان فيهم مقروق بن عمرو (أسلم) وهانيء بن قبيصة (أسلم) ومثنى بن حارثة (أسلم) والنعمان بن شريك (أسلم) وكان مقروق أدناهم من أبي بكر — فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ قال مقروق إنا لنزيد على الآلف . ولن تغلب الآلف من قلة . قال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟ قال : علينا الجهد (الطاقة) ولكل قوم جد (حظ وسعادة) قال أبو بكر : وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ قال : إنا لأشد ما يكون غضبا حين نلتقى ، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب . وإنا لنؤثر (نفضل) الجياد (من الخيل) على الأولاد . والسلاح على اللقاح (ذوات اللبن من الإبل) والنصر من عند الله يدينا (ينصرنا) ويجعل الدولة لنا . ويدبل علينا مرة أخرى . ولعلك أخو قريش ؟ قال أبو بكر : أوقد بلغكم ؟ إن أخا قريش هو ذا (وأشار إلى النبي) قال مقروق : بلغنا أنه يذكر ذلك فلا م يدعو ؟ فتقدم النبي وقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله . وأن تؤوونى وتنصرونى . فإن قريشاً قد

تظاهرت (تعاونت) على أمر الله ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد . قال مقروق : وإلام تدعون يا أخا قریش ؟ فقرأ النبي : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق (فقر) نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . قال مقروق : ما هذا من كلام أهل الأرض عرفناه . وإلام تدعون أيضاً يا أخا قریش ؟ قتلا النبي « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » قال مقروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفك (افترى السكذب) قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا عليك (وكأنما أراد أن يشرك في الكلام هاتماً فقال) : وهذا هانيء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا . فقال هانيء : قد سمعنا مقالتك يا أخا قریش . وأرى إن تركنا ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إيانا ليس له أول ولا آخر لزلة في الرأي وقلة نظر في العواقب ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ووراءنا قوم نكره أن نعقد عليهم (نقرر بدونهم) عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر وننظر (وكأنما أحب هانيء أن يشرك في الكلام المثني بن حارثة فقال) : وهذا المثني بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا . فقال المثني : قد سمعنا مقالتك يا أخا قریش . والجواب ما ذكره هانيء بن قبيصة . وإن أحببت أن تؤويك وتنصرك من سائر العرب دون أنهار كسرى فعلنا . فقد نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا ناوى محدثاً . وهذا الأمر الذي تدعوننا إليه تسكره الملوك ، قال النبي ما أسأتم إذ أوضحتم الصدق

وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه . أرايتم إن لم تلبثوا إلا قليلا ويورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم تسبحون الله وتقدسونه : قال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا ، فقرأ النبي : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » قرأ النبي هذا ونهض عن القوم .

وأتى قبائل بكر بن وائل . فسألهم : كيف العدد فيكم ؟ قالوا : كثير . قال أفتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازل أعدائكم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين . قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا رسول الله . ومروهم أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم فأخبروه بما دعاهم إليه وأنه يزعم أنه رسول الله . فقال أبو لهب : لا ترفعوا لقوله رأساً فإنه مجنون يهذى من أم رأسه . فنظروا إلى النبي وقالوا له : حتى يجيء شيخنا حارثة . فلما جاء هذا قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً . فإذا فرغنا من ذلك عدنا فنظرنا فيما تقول (ولقد كان لبني بكر بن وائل بعد هذا بقليل حرب مع الفرس في ذي قار . وكادوا يخذلون فقال لهم شيخهم : ما اسم الرجل الذي دعاكم في مكة إلى مادعاكم . قالوا : محمد . قال : فهو عزكم : فنادوا باسمه فنصروا على الفرس) ولا زال النبي يعرض نفسه على القبائل في كل موسم ويقول : لا أكره أحداً على شيء . من رضى الذي أدعوا إليه فذاك ، ومن كرهه لم أكرهه ، وإنما أريد منعى من القتل حتى أباغ رسالة ربي ، فلم يقبل منه أحد ، ويقولون : قوم الرجل أعلم به ، لا نرى أن يصلحنا رجل قد أفسد قومه .

مبايعة العقبة الأولى

وبينا هو في الموسم يعرض نفسه على القبائل وقد وافى العقبة (التي تضاف

اليها الجرة فيقال جمة العقبة وهي على يسار قاصد منى من مكة . وبأسفل منها الآن مسجد يقال له مسجد البيعة) لقي ثمانية من الخزرج . وهم : أبو أمامة بن أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحرث بن رفاعه ويعرف بابن عفراء ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة ابن عامر بن ناب ، وجابر بن عبدالله بن رثاب ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان ، فقال لهم النبي : من أتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . فأخذهم وصار بهم إلى تحت العقبة (مكان مسجد البيعة) وقال : ألا تجلسون أكلمكم قالوا : بلى ، ومن أنت ؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن . فأقبلوا إليه منصتين وقد تأثروا لقوله ، وقال بعضهم لبعض همساً : تعلمون أنه النبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا يسبقوكم إليه . وأسلم أولئك النفر . فقال النبي : وتمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي . قالوا يارسول الله إن قومنا (يعنون الأوس والخزرج) بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . وإن تقدم ونحن كذلك متفرقون لا يكون لنا عليك اجتماع ، فأمهلنا نرجع إلى عشائرننا لعل الله أن يصلح بيننا . وندعوهم إلى مадعوت فعسى الله أن يجمعهم عليك . ولئن كان كذلك واتبعوك فلا أعز منك ، وموعدك موسم العام المقبل فنهض النبي وانصرفوا .

مبايعة العقبة الثانية

ولما كان العام التالي لقي النبي عند العقبة إثنا عشر رجلاً منهم خمسة سبق إسلامهم في العام الماضي وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن عفراء ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن

رثاب . والسبعة : معاذ بن الحرث بن رفاعه بن عفراء (أخو عوف بن عفراء) وذكوان بن عبد قيس الرزقي الخزرجي . وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة البلوي (حليف الخزرج) وأبو الهيثم بن التيهان الأوسي . وعويم بن ساعدة الأوسي . والعباس بن نضلة بن مالك بن العجلان . وعبادة بن الصامت (على رأى من قال إنه لم يحضر البيعة الأولى) . فقال النبي : أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، وعلى ما طلبه أولا ، وبأن يرحل إليهم هو وأصحابه . فبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا بيهتان يفترونه ولا يعصوا النبي في معروف وأن يعطوه الطاعة في العسر واليسر وأن لا ينازعوا الأمر أهله ، وبأن يقولوا الحق حيث كانوا ، لا يخشون في الله لومة لائم . فقام العباس بن نضلة وقال : تأخذون محمداً على حرب الأحمر والأسود . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكتكم الحرب أسلمتموه فمن الآن فاتركوه ، وإن صبرتم على ذلك فخذوه . قال الجميع : فأخذه على ما بايعنا وعلى أن لا نسله إلا بعد أن يقضى آخر واحد منا . قال النبي : فإن وفيتم فلکم الجنة ومن غشى من ذلك شيئاً كان أمره مفوضاً إلى الله . إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وطلبوا منه أن يرسل معهم من يعلمهم الدين . فبعث النبي معهم عبدالله بن أم مكتوم (الأعشى) ومصعب بن عمير المعروف بالمقرئ يعلنان من أسلم القرآن ، ومن أراد أن يسلم الإسلام ويدعوان من لم يسلم إلى الإسلام ، وانصرفوا راجعين .

ولما قدم مصعب بن عمير المدينة نزل على أبي أمامة وأسعد بن زرارة فكان مصعب يؤم الخزرج فيصلى بهم . ثم يذهب فيؤم الأوس ويصلى بهم لأنهم كرهوا أن يؤم بعضهم بعضاً . وورد على مصعب من النبي كتاب فيه :

أما بعد فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم (أى اليوم الذى يليه يوم السبت) فاجمعوا رجالكم وأولادكم ، فإذا مال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله تعالى بركعتين . فجمع مصعب (أى صلى الجمعة) بالناس عند الزوال (وهى أول جمعة فى الإسلام) .

وخرج يوماً أسعد بن زرارة ومعه مصعب بن عمير إلى حائط (بستان) من حوائط بنى ظفر فجلسا فيه ، واجتمع إليهما رجل من أسلم ، وكان قد جلس فى متحدث القوم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما يومئذ سيدا بنى الأشهل ، (وكلاهما مشرك على دين قومه) فقال سيد : قم يا أسيد فأت أسعد بن زرارة وازجره ليحك عنا ما نكره ، فقد بلغنى أنه جاء بهذا الرجل الغريب يسفه ضعفاءنا . ولولا أسعد منى حيث علت (لأن أسعد بن زرارة ابن خالة سعد بن معاذ) لكفيتك ذلك ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل على أسعد ومصعب . ورآه أسعد فقال لمصعب بن عمير هذا سيد قومه فاصدق الله فيه . ووقف أسيد عليهما وقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعترلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع . فان رضيت أمراً قبلته . وإن كرهته كففتنا (منعنا) عنك ما تكره ؟ قال أسيد : أنصفت . وركز حربته وجلس إليهما . فكلمه مصعب بالإسلام . وقرأ عليه القرآن . فقال أسيد : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا رأيتم الدخول فى هذا الدين ؟ قالوا : تغتسل وتطهر وتغسل ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تركع ركعتين . فقام أسيد فتطهر وصلى ركعتين (صلاة التوبة) وقال : إن ورأى رجلاً إن اتبعك لم يتخلف عنه أحد من قومه وهو سعد بن معاذ . وسأرسله اليك ، وأخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه . ونظر سعد إليه فقال : أحلف لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما وقف أسيد على النادى قال سعد : ما فعلت ؟

قال : كلبت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً . وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت . وحدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زراراة ليقتلوه وهم يعرفون أنه ابن خالتك لينقضوا عهدك ، فهض سعد مغضباً وأخذ الحربة من يدى أسيد وقال : والله ما أراك أغنيت شيئاً . ثم خرج إليهما ، وراه أسعد فقال لمصعب : لقد جاءك سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان ، وراهما سعد مطمئنين فعرف أن أسيداً إنما بعثه ليسمع منهما . فوقف عليهما مبتسماً . وقال لأسعد بن زراراة : يا أبا أمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا منى ، تغشانا فى دارنا بما فكره ، فقال مصعب : لتقعدن فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته عز لنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت وركز الحربة وجلس ، فقرأ عليه شيئاً من القرآن فأعجبه . وقال : ما أحسن هذا !! وما تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين ؟ قالوا : نغتسل ونطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق وتركع ركعتين . وقام سعد ففعل . وأخذ حربته فأقبل على قومه . فقال أسيد وهو يتشم : علىّ حلف لقد رجع سعد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما وقف عليهم سعد قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعرفون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا (أبركنا) نفساً وأمراً قال : إن رجالكم ونساءكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فأسلم رجال ونساء بنى عبد الأشهل فى يومهم (إلا عمر بن ثابت فقد تأخر إسلامه) ورجع مصعب إلى دار أسعد بن زراراة وأقام عنده يدعو إلى الإسلام حتى أسلم الرجال والنساء من الأنصار (إلا جماعة من الأوس) .

وخرج مصعب وكعب بن مالك وبعض المسلمين مع قوم من حجاج المشركين فقدموا مكة وأخبروا النبي بمن أسلم فسر بذلك . ووعدهم العقبة (أى

أن يوافوه بالشعب بالأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة (حيث المسجد
المسمى بمسجد العقبة أو مسجد البيعة) وأمرهم أن يأتوا إليه بليل .
وأن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً ، وفي خلال أيام الحج قابل كعب بن
مالك أبا جابر عبد الله بن حرام وعرض عليه الإسلام فأسلم وأخبره
بموعد النبي .

مبايعة العقبة الثالثة

ولما فرغ المدنيون من الحج وكانت ليلة الموعد وقد مضى ثلث الليل
خرجوا من الرحال يتسلل الرجل والرجلان مستخفين واجتمعوا في الشعب
عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان . ووافاهم النبي ومعه عمه العباس بن
عبد المطلب (وكان لم يظهر إسلامه) وقد أوقف على بن أبي طالب على فم
الشعب وأبا بكر على فم الطريق . فلما جلسوا تكلم العباس فقال : يا معشر
الجزرج والأوس إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا عن هو
على مثل رأينا . فهو في عز من قومه ومنعة في بلده . وقد أبي إلا الانحياس
إليكم وللحق بكم . فإن كنتم ترون أنكم موفون له بمادعوتهم إليه وما نعوه
من خالفه . فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه
بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده . فقال
البراء بن معرور : إنا والله لو كان من أنفسنا غير ما ننطق به لقلنا . ولكننا
نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دونه . قال العباس : علمتم أن محمداً
أبي الناس (يريد بني شيدان بن ثعلبة إذ قالوا للنبي نصرك مما يلي مياه العزب
دون مياه كسرى) غيركم . فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصيرة بالحرب واستقلال
بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة . فرووا رأيكم واتمروا بينكم

ولا تفرقوا إلا عن ملائ واجتماع . فإن أحسن الحديث أصدقه . قالوا : قد سمعنا مقالتك يا عباس . فتكلم أنت يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت فقال النبي : أمرى لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسكم وأبناءكم . قال ابن رواحة فإذا فعلنا فما لنا ؟ قال : لكم الجنة . قال جميعهم : ربح البيع لا نكيل ولا نستقيل ، وأخذ البراء ابن معرور بيده وقال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك بما نمنع به أنفسنا . وإنا والله لأهل الحرب وأهل السلاح ورثناها كابراً عن كابر . وبينما البراء يتكلم قال أبو الهيثم بن التيهان : نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف ، فقال : العباس بن عبد المطلب : اخفوا خسرانكم (صوتكم) فان علينا عيوناً ، واستمر أبو الهيثم يقول : إن بيننا وبين الرجال (يعنى اليهود) حبالا (عهداً) وإنا لقاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهر الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم النبي وقال : بل الدم الدم والدم والهدم الهدم (أى دمي دمكم وإن هدمتم الدم أى تركتموه تركته) ذمتي ذمتكم ورحاتي رحلتكم . أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم . قال العباس : عليكم بما ذكركم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم يد الله فوق أيديكم ، لتجدن في نصرته وتشدن أزره . قالوا جميعاً : نعم . فقال العباس : اللهم إنك سامع شاهد وإن ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه . اللهم كن لابن أخى شهيداً . وقال النبي : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً فيكونوا على قوْلهم . فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال لأولئك النقباء أنتم كفلاء على غيركم وأنا كفيل على قومي (يعنى المهاجرين) وتكلم كل سيد منهم بما يقوى البيعة . وقالوا : يا رسول الله مالنا إن نحن وفينا ؟ قال : رضوان الله والجنة . قالوا : رضينا أبسط يدك . فبايعه البراء بن معرور وأسعد بن زرارة وأبو

الهيثم بن التيهان وبايعه السبعون وبايعه المرأتان (من غير مصافحة) وبذلك تمت بيعة العقبة الثالثة وقال لهم النبي : انفضوا إلى رحالكم . ونفر الناس من منى . ونفى الخبر إلى قريش وتحققوه فافتقوا آثار الأنصار فأدركوا سعد بن عباد . فربطوا يده في عنقه ولازالوا يضربونه حتى دخلوا به مكة . وعطف عليه أبو البجترى وقال همساً . أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال بلى كنت أجير لجبير بن مطعم وللحرث بن حرب بن أمية (أخى أبي سفيان) قال ويحك فاهتف باسم الرجلين . ففعل سعد ذلك . فقال : إن رجلاً من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمي كما . فقالا : من هو ؟ قال يقول : إنه سعد بن عباد ، فجاء إليه وخلصاه .

المؤاخاة بين المهاجرين وهجرتهم

وعمدت قريش إلى من آمن في مكة فشددت بالتضييق عليهم ونالت منهم ما لم يكونوا نالوه من الشتم والإهانة . وجعل البلاء ينال عليهم حتى كانوا بين معذب ومفتون في دينه . وشكوا ذلك إلى النبي . فأخذ يؤاخى بينهم على المواساة والحق ليرتفق الأدنى بالأعلى وليتعاون الفقير بما بيد الغنى والضعيف بالقوى في العشيرة . فأخى بين أبي بكر وعمر . وبين حمزة وزيد بن حارثة وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف . وبين الزبير وابن مسعود . وبين عباد بن الحرث وبلال . وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص . وبين أبي عباد وسالم مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله وبين علي بن أبي طالب ونفسه . وهكذا أخى بين البقية . . ثم قال لهم : هجرتكم دار يثرب . فمن أراد فليخرج إليها . فخرجوا أرسالا يخفون حركاتهم . وكان قد حضر من الحبشة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي وزوجته

أم سلمة (أخذ النبي في الرضاع) فكان أول مهاجر . فأركب زوجته وابنها سلمة على بعير وأخذ بخطامه . فخرج نفر من قوم أم سلمة فقالوا : يا أبا سلمة . قد غلبتنا على نفسك فلا نترك لك ابنتنا تسير بها في البلاد ، فجاءهم رجال من قوم أبي سلمة وقالوا لهم : إن ابنتنا معها فإن نزعتموها من زوجها أخذنا ولدنا ، فأخذ أم سلمة قومها . واستلم سلمة قوم أبيه . وسار عبد الله أبو سلمة إلى المدينة . فكانت أم سلمة تخرج كل غداة إلى الأبطح وتبكي . ومروا بها رجل من بني عمها فأشفق عليها . وذهب إلى قوم زوجها وقال : ارحموا هذه المسكينة . فرقم بينها وبين ولدها . فأرجعوا إليها ولدها فركبت بعيراً وخرجت تطلب المدينة فلقيها عثمان بن طلحة (صاحب مفتاح السكبة : أسلم) وقال : إلى أين السيدة ؟ قالت : إلى زوجي بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : لا مامعني إلا الله . فقال : والله لا أتركك . وأخذ بخطام البعير وسار معها . فكان إذا وصل المنزل أناخ بها ثم استأخر . حتى إذا نزلت جاء فخط عن البعير وقيده في شجرة وذهب بعيداً واضطجع . فاذا دنا الروح قام فحل البعير وقدمه واستأخر . وقال لها : اركبي فتركب ويأخذ بخطام الجمل حتى أوصلها إلى زوجها .

وهاجر بعد ذلك كثير ممن أسلم في خفاء غير عمر بن الخطاب فإنه ذهب فتقلد سيفاً وتنكب قوساً وانتقى أسهماً في يديه واختصر (علق عند خاصرته) عززته (حربته) ومشى إلى السكبة فطاف بها وقريش بفنائها . ثم أتى المقام فصلى ركعتين ونظر فيمن جلس من قريش وقال : شأهت الوجوه ، أرغم الله هذه المعاطس (الأنوف) من أراد أن تشكله (تفقده) أمه ويؤتم أو أوترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي . ومضى لوجهه ولم يتبعه أحد . وهاجر معه أخوه زيد بن الخطاب والزيير بن العوام وعياش بن أبي ربيعة

وعشرون راكباً . فقدموا المدينة ونزلوا على رفاعة بن عبد المنذر .

وكان هشام بن العاصي قد وعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه . فعرف ذلك أهله فأخذوه واحتبسوه وعذبوه . وذهب أبو جهل وأخوه الحرث بن هشام (أسلم) إلى المدينة عقب سفر عمر بن الخطاب . وكلما عياش بن أبي ربيعة (وكان أخاهما لأُمهما وابن عمهما) فقالا له : إن أمك نذرت أن لا تغسل رأسها ولا تمس رأسها مشط ولا تدخل كُنا حتى ترجع إليها . وأنت في دين منه البر بالوالدين . فارجع إلى أمك واعبد ربك كما تعبد في المدينة ، فرقت نفسه وصدقهما وأخذ عليهما المواثيق أن لا يغشياه بسوء . فقال له عمر : ما يريدان إلا فتنك في دينك فاحذرهما . والله لو آذى أمك القمل لامتشطت ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت فقال عياش : أبر أمي ولي هناك مال آخذه . فقال عمر : خذ نصف مالي ولا تذهب معهما . فأبى عياش ، فقال عمر : إذا كنت قد صححت نفقناقتي هذه فإنها نجية ذلول فإن نأبك منهما رية فانج عليها فأبى وخرج معهما إلى مكة . ولما صاروا خارج المدينة شدا يديه إلى خلف وجلداه فوق المائة جلدة ، ودخل به مكة مكشفاً في النهار وهما يقولان : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهاكم ثم ألق في السجن . وأخيراً حبس مع هشام بن العاص وغيره كل واحد في قيد .

وفيمن هاجر سالم مولى أبي حذيفة ، وكان أكثرهم أخذاً للقرآن ، فكان يوم المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب . وهاجر أصحاب النبي غير علي وأبي بكر ومن كان مستضعفاً أو محبوساً ، واشتد أذى قريش على مثل هؤلاء ، وكان أبو بكر يستأذن النبي في الهجرة . فيقول له : لا تفعل لعل الله يجعل لك صاحباً . فطمع أبو بكر في أن يكون النبي صاحبه . وعلف راحلتين كانتا عنده استعداداً للسفر .

مؤامرة قريش على قتل النبي

ورأت قريش أن النبي أصاب منعة من أهل المدينة وهم قوم أهل سلاح وبأس وحذر ، وأنه سيجتمع على حربهم . فاجتمع في دار الندوة منهم نحو مائة رجل وقالوا : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم . ولا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه . فهاتوا الرأي فيه . فقال أبو البحتري بن هشام احبسوه في الحديد ، وتربصوا ما أصاب أشباهه الشعراء قبله . قال آخر : لو أنكم حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه عليه إلى أصحابه فيثبوا عليكم ويتزعموه ويكاثروكم به فيغلبوكم .

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو : نخرجه عنا فينفى من بلادنا ولا نبالي إلى أين ذهب . قال غيره : ما هذا رأى ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتكم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بحسن حديثه وحلاوة منطقه حتى يتابعوه . ويسير بهم إليكم ويفعل بكم ما أراد . قال أبو جهل : إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه . أرى أن تأخذوا خمسة رجال من خمس قبائل يعطى كل رجل سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، ويتفرق دمه على القبائل فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ونعقله لهم . فأجمعوا على ذلك ، وبالغوا في كتمان الأمر فلم يعلم به أحد . وعليه النبي من الوحي كما علم الليلة التي نوا أن يوقعوا فيها القتل . فجاء بيت أبي بكر ظهراً واستأذن في الدخول . وبلغ أبو بكر بحجته فقال : والله ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر حدث . ودخل النبي فتنحى أبو بكر عن سريره وجلس عليه النبي ، وقال : أخرج من عندك . قال : إنما هم أهلك (لأنه كان قد عقد على عائشة ولم يكن في البيت سواها وأسماء أختها وأم رومان أمها وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر) فقال : قد أذن لي في الخروج من مكة إلى المدينة . فبكى أبو بكر

وقال : الصعبة يا رسول الله : قال : نعم . قال أبو بكر : فخذ إحدى راحلتى هاتين . قال النبي : بل بالثمن فإنى لا أركب بعيراً ليس لى . قال أبو بكر : فهو لك . قال : ولكن بالثمن الذى ابتعته به . قال قد أخذته بكذا . فطلب منه أن ينتظره مخفياً فى ساعة ومكان معينين . ويأمر عامر بن فهيرة مولاہ بأن يلحقهما بالراحلتين فى اليوم الثالث فى غار ثور ثم قام عنه .

وجاءت ليلة الموعد فأمر النبي على بن أبى طالب فنام مكانه وقال له : اتشح ببردى هذا الحضرى الأخضر ، ونم فيه فإنه لن يخاص إليك شيء تكرهه . وأمره بأن يتخلف بعده حتى يؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس (وكانت عنده أمانات لنفر من قريش استودعوه إياها لما يعلمون من صدقه وأمانته) .

ولما كان الليل اجتمع من قريش حوالى المائة على باب النبي يرصدونه حتى ينام . وجعلوا يتطلعون من شق الباب يرقبون بياته وطلوع الفجر لتنفيذ ما اتفقوا عليه . وزائف (قرب) الوقت فازدحموا على الباب يتهاوشون ويتهايمسون ويغدون ويروحون . فخرج النبي من الباب يتلو « سورة يس » حتى آية « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » فلم يره أحد منهم . ونثر وهو يقرأ على رؤوسهم رشاشاً من التراب ، وذهب فوجد أبا بكر فى انتظاره تحت الظلماء فرافقه حتى تواریا بغار ثور .

وقال أحد قريش : إنى لأظن محمداً قد خرج وترك لنا علامة الخيبة . فإنى أشعر على رأسى بتراب رقيق . فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب . فجعلوا ينظرون من ثقب الباب فيرون رجلاً مسجياً (مغطى) بالبرد الأخضر . فيقولون إنه لمحمد وعليه برده . وكان تسور جدار

البيت ممكناً . فهموا بتسوره فصاحت امرأة من الدار . فقال بعضهم : إنها
نسبة في العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا
بأيدينا ستر حرمانا . فأقاموا بالباب يحرسون النائم حتى يقوم في الصباح
ويفعلوا به ما تفقوا عليه . ولما أصبحوا قام على عن الفراش . فقالوا : أين
صاحبك قال : لا أدري فتفرقوا عنه .

وفقدت قريش النبي فطلبوه بأعلى مكة وأسفلها وبعثوا القافه (جمع قائف
وهو الذي يعرف الأثر) في كل وجه فوجد الذي سار على طريق غار ثور
الأثر بادياً فاتبعه وجماعة من قريش حتى انقطع عند الغار وقال . هنا انقطع
الأثر ولا أدري أخذ يميناً أم شمالاً . وإن منهما لأثر قدم أبي بكر وقدام آخر
لا أعرفه . فجعلوا ينظرون إلى الغار فرأوا حمامتين وحشيتين قد عشتا بباب
الغار وبأسفلها قد ملأ العنكبوت فتحة الباب إلا نحو ذراع . فقال أحدهم :
أدخلوا الغار . فقال أمية بن خلف : وما أربكم (أى حاجتكم) إلى الغار ؟
إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد . فقال أبو بكر للنبي : إن هذا الرجل ليرانا
(وكان في مواجهه) فقال النبي : لا تحزن إن الله معنا ورجعت قريش في طريقها .

ولبت أبو بكر بغار ثور ثلاث ليال ووافاهما عامر بن فهيرة مولى أبي
بكر بالراحلتين في نحو الظهر (قبيل الظهر) فخرجا إليه . ونظر النبي إلى مكة
وقال : ما أطيبك من بلد وأحبك إلى ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما
سكنت غيرك ، ووقف قليلاً صامتاً . وقال : الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً
اللهم أعني على هول الدنيا ووائق الدهر ومصائب الليالي والأيام . اللهم احببني
في سفرى ، واخلفني في أهلى وبارك لى فيما رزقتنى ، عليك فدلنى وعلى صالح
خلقى فتقومنى . وإليك خببى ، وإلى الناس فلا تكنى أنت رب المستضعفين

وربي . أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض وكشفت
به الظلمات وصالح عليه أمر الأولين والآخرين أن يحل بي غضبك أو ينزل
عليَّ سخطك . أعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نعمتك . ولا حول ولا
قوة إلا بك .

وركب النبي وأردف أبو بكر عامراً على راحلته وساروا ساعات ومروا
بصخرة سفح (منحدر) جبل ، فقام النبي في ظلها . وهناك راعى غنم فاستحلبه
أبو بكر بضمن فحلب له وسقى النبي وعامراً وشرب هو . ثم ارتحلوا فمروا بمقام
أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية (أسلمت) وكانت امرأة برزة عفيفة جلدة قوية
تحتبي بفناء القبة وتسقى وتطعم من يمر بها) وكانت هي وقومها مستئين (مقحطين)
فطلبوا منها لبناً أو لحماً أو تمرأ ولو بالثمن فلم يجدوا . وقالت : والله لو كان عندنا
شيء ما أعوزنا القرى . فنظر النبي إلى شاة في كسر الخيمة خلفها الجهد (الهزال)
عن الغنم فقال : هل بهذه من لبن ؟ قالت هي أجهد من ذلك (تريد أنها ضعيفة)
قال : أفأذن لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً (لبناً)
فدعا بالشاة ودعا الله فدرضرعها لبناً . وأتى بإناء فحلب وشرب هو ومن معه
وأم معبد وبقى اللبن زائداً . فقال : ارفعي هذا إلى أبي معبد (أسلم) ثم استتبعا
السير (وجاء أبو معبد بعد ارتحالهم وأخبر بما جرى فقال : ذاك أخو قريش :
وكان هو وأولاده وقومه بعد هذا يؤرخون بنزول الرجل المبارك عندهم) .
واهتمت قريش بالقبض على النبي . فجاء أبو جهل — وكان رجلاً فاحشاً
خبثاً — إلى بيت أبي بكر فخرجته لتهبته أسما (وهي لاتعرف أين سار أبوها)
فقال لها : أين أبوك يا ابنة أبي بكر ؟ قالت : والله لأدري أين هو . فلطم خد
أسما بيده لطمه خرج منها قرطها . وذهب في نفر من قريش إلى سراقة بن
مالك المدلجي (أسلم) فقالوا : ياسراقة إنا جعلنا دية عن كل من محمد وأصحابه

لمن يأتي بهم أسرى أو قتلى . وقال واحد : وقد رأيت ياسراقة أنفا سواداً
بالساحل وإني لأظنه محمداً وأصحابه . قال سراقة : ليسوا من سميت . ولكنك
رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا ثم قام سراقة فأمر جاريته أن تخرج بفرسه
من وراء أكمة فتحبسها له . وأخذ رحله وخرج من ظهر البيت . وسار يكد
حتى لحق النبي وصاحبيه . وكان النبي إذا مشى لا يلتفت . ونظر أبو بكر فقال :
هذا الطلب قد لحقنا . قال النبي لا تحزن إن الله معنا . واقترب سراقة منهما وقال :
ما يمنعك مني اليوم يا محمد قال : يمنعني الجبار الواحد القهار . وأراد سراقة بهما
الاذى فخدرت (توقفت عن الحركة) يده وأعصابه . وقصرت بهفرسه . فقال :
انظروني أكلبكم فوالله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه . وقد علمت أنكم دعوتكم
على فادعوا لي . وأخبرهما بحرص قريش على الظفر بهما وبذل المال لمن يحصلهما
وعاهدتهما على أن لا يقتلهما ولا يخبر عنهما إلى ثلاث ليال . وعرض عليهما الزاد
فامتنع النبي وقال : إذالم ترغب في الإسلام فلا حاجة لنا بما تعرض وكتب النبي
له كتاباً يعده فيه بأموال وساروا فاجتازوا في الطريق بعبد يرعى غنما . فاستسقاءه
أبو بكر فقال : ما عندي غير شاة حملت عام أول وما بقي بها لبن . فاعتقلها النبي
فحلبت فسقى أبا بكر وعامراً والراعي وشرب هو وقال : ساقى القوم آخرهم .
فقال الراعي ومن أنت أيها الرجل المبارك ؟ قال . أوتراك تسكن على فأخبرك ؟
قال - نعم - قال : فإني محمد رسول الله . قال . أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ .
قال : يقولون ذلك . قال : أشهد أنك نبي وأن ما جئت به حق فإنه لا يفعل ما
فعلت إلا نبي وأنا متبعك قال : إنك لا تستطيع ذلك اليوم . فإذا بلغك أني
قد ظهرت فأتنا .

وارتحلوا عنه وما ساروا بعيداً . وكان قد بلغ بريدة بن الحصيب أمير بني
سهم أن قريشاً جعلت مائة من الإبل لمن يرد النبي . فركب في سبعين من قومه

فلقي النبي وأبا بكر . واستقبله النبي فقال : من أنت ؟ قال بريدة . فالتفت متفائلاً إلى أبي بكر وقال : برد أمرنا وصلح : ثم قال : ومن أنت ؟ قال : من أسلم (بطن من بني أسهم) قال النبي : سلنا ثم قال : ومن ؟ قال من بني سهم . قال : خرج سهمك يا أبا بكر : وقال بريدة للنبي . ومن أنت ؟ قال : محمد بن عبد الله رسول الله . فأسلم بريدة ومن كان معه . ونزل مع النبي إلى الصباح . وكانوا قد قاربوا المدينة . فقال بريدة : يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ثم حلّ عمامته وشدها في رمح .

وكان المسلمون في المدينة لما سمعوا بخروج النبي من مكة يخرجون بعد المسافة المعتادة في الغداة إلى الحرّة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة إلى ثلاثة أيام وأتى رجل من البادية كان قد أرسله النبي إلى أبي أمامة أسعد بن زرارة يخبره بقدمه . فثار المسلمون إلى السلاح في خمسمائة من الأنصار . وصعدت ذوات الحدور على الأحاجير (الأسطحة) ووقف الصبيان والولائد على الطريق تغني :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أهـا المرسل فينا جئت بالأمر المطاع

واستقبله الأنصار بظهر الحرة في ظل نخلة كانت هناك وهم يقولون : ركبنا آمنين مطاعين ، والنبي يبتسم ويرحب ويسلم فرحاً مستبشراً . وسار به هذا الجمع المحتشد إلى قباء حيث نزل في دار بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف (بطن من الأوس في ظاهر المدينة) وحينئذ سمع النبي كلثوماً ينادي : يا نجيح ، فقال لأبي بكر : نجحت يا أبا بكر .

وهدأت الناس قليلاً فسار النبي فنزل على سعد بن خيشمة لأنه كان عزباً (لا أهل له هناك وكان منزله يسمى منزل العزاب) فجلس يحدث الناس . ونزل

أبو بكر دار حبيب بن أساف . ثم عاد إلى مجلس النبي فسكران من لم ير النبي من الأنصار يحيي أبا بكر ظاناً أنه النبي . حتى جاءت الشمس على النبي فأقبل أبو بكر يظلل عليه بردائه فعرف الأنصار أنه النبي . وأقام في قباء أربعة أيام بنى بها مسجد قباء .

ثم أمر فنودي في الناس بالدخول إلى المدينة . فقال بنو عمرو بن عوف : يا رسول الله أخرجت ملائلاً لنا أو تريد خيراً من دارنا ؟ قال : بل أمرت بقرية تأكل القرى (أى تغلب وتقهقر القرى) وركب الناقة وترك زمامها ، فخرج الناس من قباء بين ماش وراكب ، يتنازعون على استلام خطام الناقة تبركا وتعظيماً حتى دخل المدينة والخدم والصبيان قد ملأوا الطرق حول الناس يقولون : الله أكبر الله أكبر جاء رسول الله : ولعبت الحبشة بجربابها وأدر كته صلاة الجمعة في مسجد بنى سليم (مسجد في بطن الوادى على يمين القاصد إلى مسجد قباء ويسمى مسجد الجمعة) فصلاها بمن معه من المسلمين وكانوا زهاء مائة (وهي أول جمعة صلاها النبي بالمدينة) وخطب به خطبة ورد فيها « من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد بكلمة طيبة فإنها تجزىء الحسنه بعشر أمثالها » ثم ركب متوجهاً إلى المدينة . وصارت الناقة تنظر يمينا وشمالا . وكلما مر على دار من دور الأنصار دعوه إلى المقام عندهم ويقولون : يا رسول الله هلم إلى القوة والمنعة . فيقول : خلوا سبيلها (يعنى الناقة) فإنها مأمورة . ومر على دار بنى سالم بن عوف فسأله عتبة بن مالك ونوفل بن عبد الله بن مالك وعبادة بن الصامت : فقالوا : يا رسول الله أقم عندنا في العز والثروة والمنعة فان فينا العدد والعدة والحلقة (أى السلاح) ونحن أصحاب الخلائق والدرك . فتبسم النبي وأثنى خيراً وقال : بارك الله فيكم خلوا سبيلها فإنها مأمورة . ومر على بنى بياضة فسأله زياد بن لبيد وفروة بن عمرو بمثل ما تقدم فتبسم وشكر . وقال : خلوا سبيلها . ووردت الناقة بنى ساعدة فسأله سعد بن عبادة والمنذر بن

عمرو وأبو دجانه بمثل ما تقدم فأثنى عليهم . وقال : خلوا سبيلها . حتى مرت بدار بني النجار (أخوال عبد المطلب) فقالوا : نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والعزة مع القرابة ، لا تجاوزنا لغيرنا ، فان قومك أولى بك . فقال : خلوا سبيلها .

وبركت الناقة بمحل من محاطهم (محل مسجد النبي) في دار بني مالك بن النجار وكان في موضع يجفف فيه التمر . ثم ما لبثت أن ثارت فبركت على باب أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري من بني مالك بن النجار . ومكثت قليلا واثارت فرجعت إلى دار بني مالك بن النجار فبركت وألقت جرائنها (باطن عنقها) بالأرض فكان في مبركها الأول بيته وفي الثاني مدفنه وأرذمت (صوتت) وكانت دار بني النجار وسط دور الأنصار وأفضلها وهي دار أخوال عبد المطلب فجاء جبار بن صخر من بني سلمة وداره قريبة من بني النجار فجعل ينخس الناقة رجاء أن تقوم فتنزل في دار بني سلمة فلم تقم ، ونزل النبي عن الناقة وهو يقول : رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، هذا المنزل إن شاء الله . وأتاه أبو أيوب فقال : إن منزلي أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك . قال : نعم . فنقله وأناخ الناقة في ظلاله . ونزل النبي في السفلى من بيت أبي أيوب وأبو أيوب في العلو . فرغب إليه أن يكون في العلو . فقال النبي : يا أبا أيوب إن الأرقق بنا ونحن يغشانا الناس أن تكون في سفلى البيت . فلم يزل أبو أيوب يلح ويتضرع إليه حتى تحول إلى العلو . وتفرق غلمان بني النجار في الدروب ينادون : جاء محمد رسول الله الله أكبر ، وخرجت جويزات من بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

وقال النبي : خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث

ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير . وبلغ سعد بن عبادة (وهو من بنى ساعدة) فوجد في نفسه وقال : خلفنا فكنا آخر الأربع !!! أسرجوا لي حماري فأقى رسول الله . فقال له سهل بن أخته : أو ترد على النبي فيما علم ؟ أليس حسبك أن تكون رابع أربعة . وما لم يسم أكثر مما سمى ! قال سعد : الله ورسوله أعلم . وأمر أن يفك سرج حماره : ومكث النبي في دار أبي أيوب سبعة أشهر حتى بنى المسجد وبعض مساكنه فتحول إليها .

أما علي بن أبي طالب فقد قام بمكة بعد أن توجه النبي إلى المدينة بالأبطح ينادى : من كان له عند رسول الله ودیعة فليأت تؤد إليه أمانته . ولما نفد ما عنده كان قد ورد عليه كتاب من النبي يأمره بالشخوص إليه . فابتاع ركائب سار بها إلى المدينة ومعه القواطم وأم أيمن وولدها وجماعة من ضعفاء المؤمنين فكان في طريقه يسير الليل ويكنم النهار . وقدم المدينة فنزل على كلثوم بن الهدم اقتداء بالنبي .

وتنافس الأنصار يريد كل واحد أن ينزل عليه المهاجرون . فكانوا يعملون القرعة فكل من أصابته بواحد استنزله عنده بأمواله

وأصاب وعك الحمي أبا بكر وبلا لا وعامر بن فهيرة . وبلغ النبي ذلك . فنظر إلى السماء وقال : اللهم حجب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد : اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا (الصاع والمد مكاييل) وصحبنا لنا وانقل حماها (بتشديد الميم) إلى الجحفة فكانت الجحفة بعد ذلك موضع وباء ، (وسلبت المدينة وشنق المرضى) .

وقدم أصيل من مكة فسئل والنبي جالس : كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها حين أبيضت أباطحها (الأباطح جمع أبطح مسيل واسع فيه دقاق الحصى) وأحجن (نضج) ثمامها (الثمام نبت خفيف له خوص) واغدودق (كثرت) إذخرها

(الإذخر نبات) وأبشر (جاء بالبشارة) سلبها (السلم جمع سلمة شجر العضاة . يعظم وله شوك) فأغرورقت عيننا النبي (أسفاً على أن غلب لأهلها وأخرج منها قهر آوى بلدمنيته ومناخ تربيته) وقال : تشوقنا يا أصيل ، دع القلوب تقر .

دخول النبي على عائشة

وفي هذه الأيام طلب النبي الدخول على عائشة فجهزت له وبنى بها

بناء مسجد قباء

وشرع النبي في بناء مسجده بقباء فقال يا بني النجار ثامنوني (اذكروا الثمن) بحائطكم (بستانكم) قالوا : لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . فأبى النبي ذلك وابتاعه بعشرة دنانير (أداها من مال أبي بكر)

وبنى المسجد من اللبن (الطين المجفف) وسقفه بالجريد وجعل عمده من خشب النخل . وكان النبي يعمل بيده مع العاملين في البناء .

وكان عثمان بن مظعون رجلاً متأنقاً مترفها فيحمل اللبنة (القطعة من الطين) فيجافي بها عن ثوبه . فإذا وضعها نفخ كفه ونظر إلى ثوبه . فنظر إليه علي بن أبي طالب فأنشد على سبيل المباشطة والمطايبة كما هي عادة المجتمعين على عمل لا يستوى من يعمل المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

فسمع ذلك عمار بن ياسر فجعل يرتجز قول علي بغير أن يعنى أحداً ومرت عثمان بن مظعون فظنه يعنيه . فقال له : يا ابن سمية لأعرفن بمن تعرض (ويبد عثمان حديدة) لتكفن أولاً تعرض بهذه وجهك . وسمعه النبي فغضب . وقال البعض لعمار إن النبي قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فيها قرآن . فقال عمار : أنا

أرضيه كما غضب : وجاء إلى النبي فقال : يا رسول الله مالي ولأصحابك ؟ قال : مالك ؟ قال : يريدون قتلى . يحملون لبنة لبنة ويحملون على لبنتين (قال هذا عمار وهو يبسم) فأخذ النبي بيده وطاف به المسجد وهو يمسح وفرته (الشعر الذي في جهة القفا) ويقول : يا ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، تقتلك الفئة الباغية .

وبعث النبي زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة فقديما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة (أما رقية فقد كانت سبقت مع زوجها عثمان بن عفان وتأخرت زينب عند زوجها أبي العاص بن الربيع حتى أسر بيدر) وبعث أبو بكر عبدالله بن أريقط ومعه كتاب إلى عبدالله بن أبي بكر . فقدم المدينة ومعه أم رومان زوجة أبي بكر وأم أبي بكر وعائشة وأسماء .

وشرع النبي يؤاخي بين المهاجرين والأنصار لتذهب عنهم وحشة الغربة . وليؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض . فكان الذين آخى بينهم خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ولقد بذل جماعة الأنصار مزيد الجهد لترضية المهاجرين . وكتب النبي كتاباً بين المهاجرين والأنصار ودعا فيه يهود بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير وصالحهم على ترك الحرب والأذى وأن لا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينوا عليه أحداً وإن دهمه عدو نصره وعاهدكم على ذلك وأقرهم على دينهم وأموالهم . وفي هذه الأثناء توفي أسعد بن زرارة وكان نقيباً لبني النجار وحزن عليه النبي حزناً شديداً ، ولم يقم لبني النجار نقيباً بدله . وطلبوا منه ذلك فقال : لهم أنتم أخوالي وأنا نقيسكم (وذلك ابتعاداً من أن يخص بالنقابة أحدهم فيغضب غيره) فكانوا يفخرون بأن النبي نقيسهم .

المعراج

ووافقت الليلة المشرفة، فرأى النبي في منامه أن قد صعد به إلى السماء (أى هذا العلو المرتى) مسكتفاً بنور كسحابة قد تمثل في طيها بذاته البشرية . فطاف شيئاً من ملك الله ليريه الله بعضاً من مقامه وكرامته عنده . وليكشف له بحال يشبه المحسوس بعضاً من عظيم قدرته ، فكان من آونة إلى أخرى في خلال فترة قصيرة أوسعها الله في تصور روحه الكريم . فكانت بمقدار زمن ، يلهم فينادى بعالى صوته : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . ودام يسمع أصوات المسبحين والمهللين والمكبرين من عمار الكواكب والعوالم العالية . حتى بلغ مستوى انتهى إليه مدى المستحدثات، وفنيت عنده الحركات : وانشق جانب تلك السحابة فبصر بمدرج من السندس انتقل إليه بالهام . وذكر أن قد خلص إلى المنزل الأخص والمدى الأدنى من الحيث المعد لرحلته وغشيه من النور فوق احتمال الأمثال إشعاراً بأسباب الرضوان . فرأى ولكن حجب الجلال أن يرى أكثر مما علم . وهو أقصى ما يمكن أن يعلم المحدث من القديم . ثم سمع افتراض الصلاة . ثم عاد فأخبر أصحابه بما رأى فسمعوا وأطاعوا .

اختيار الأذان

وكان المهاجرون إلى المدينة منذ قدومهم يتحينون أوقات الصلاة من غير دعوة . وكان بلال ينادى : الصلاة جامعة ، فقال بعضهم تتخذ ناقوساً . وقال البعض : بل تتخذ بوقاً ، وقال عمر : نرسل رجلاً ينادى بالصلاة ، وقال آخر ، نوعد ناراً ونرفعها ليراها الناس فيقبلوا ، ورأى بعضهم الأذان فجاء الوحي باستحسان الآذان .

محمدي اليهود

ولما ظهرت قوة الإسلام بالمدينة وجد كبار اليهود على النبي وطعنوا عليه . وكان مالك بن الصلت من أحبار اليهود وكان بديناً سميناً ويبغض النبي . وقد حصل على كثير من أموال اليهود باسم الشريعة . فحضر يوماً مجلس النبي فقال له : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الجسد السمين ؟ فغضب مالك وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء (يريد بذلك تكذيب النبي فكفر بموسى في جملة قوله) فقال له اليهود : ما هذا الذي قلته ؟ فقال : إن محمداً أغضبني فقلت ذلك . فنزعوه من رئاسة دينهم وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

ومر يوماً شأس بن قيس على الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون فغاضه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة . فقال لنفسه : قد اجتمع بنو قبيلة . والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . وذهب فأوعز إلى فتي من اليهود فذهب وجلس مع الأوس والخزرج وذكر أيام حروبهم . وأنشد ما كانوا يتقاولون من الأشعار فقال الخزرج : قال شاعرنا كذا . وقال الأوس : قال شاعرنا كذا . وتنازعوا ثم تواعدوا على المقاتلة وقاموا إلى السلاح وتصافوا للحرب . وبلغ النبي ذلك ، فخرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين وهو يقول : الله الله : اتقوا الله . أبدعوى الجاهلية (أى أقتاتلون بدعوى الجاهلية) وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . واستنقذكم من الكفر وألف به بينكم . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان . فتابوا إلى الرشد وبكى الجميع وأقبلوا يتعانقون ويحيطون بالنبي ونزل القرآن بقوله للأنصار : يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا

فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ،

وجاء النبي يهوديان فسألاه عن أعظم شهادة في كتب الله فأنزل الله عليه قوله « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » وجاءه رهط منهم فقالوا : أنسب لنا ربك . فقرأ « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »

وأناه الحصين بن سلام (بفتح اللام . وسماء النبي بعد إسلامه عبد الله) وكان من يهود بني قينقاع . وكان النبي في بيت أبي أيوب وسمع ابن سلام . قوله : أيها الناس أفسحوا السلام ، وصلوا الأرحام ، وأطعموا الطعام . وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام فقال ابن سلام لنفسه : والله إنه لقديس وآمن ولم يجهر بإيمانه . ورجع فأخبر أهل بيته فأسلموا ولم يعلم بذلك أحد . بعد هذا حضر جماعة من اليهود مجلس النبي ، فكان من قوله لهم : يامعشر اليهود اتقوا الله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأنى جئتكم بحق فأسلموا . قالوا : ما نعلم ، قال : فأى رجل منكم ابن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلينا وابن علينا . قال : أفرأيتم إن شهد هذا أني رسول الله أن تؤمنوا ؟ قالوا : نعم ، وبعثوا وراء ابن سلام فحضر . فقال النبي : أما تعلم أني رسول الله ، تجدونني في التوراة ، أخذ الله ميثاقكم أن يؤمن بي ويتبعني من أدركني منكم ؟ قال ابن سلام : بلى ، فثار عليه اليهود وقالوا :

كذبت، أنت شرنا وابن شرنا . قال ابن سلام : فنظرت فيه فتبينت أن وجهه ليس بوجه كذاب فصدقت به وآمنت ، وقلت لليهود إنكم قوم بهت (بضم الباء واهاء اى تواجهون الناس بالباطل) أهل غدر وكذب ، إنكم لتعلمون أنه النبي الذي تجدون صفاته في التوراة . وعن أبي رقة التيمي قال : أتيت النبي فلما رأيته قلت هذا نبي الله بلا شك وأسليت . وجاءه يهود فقالوا : كيف تقول إنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل ؟ فقرأ آية « كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » وقال : هل تعلمون أن إسرائيل (وهو يعقوب) مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر إن شفاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه . وشفى فكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فحرمها ومنعها على نفسه وكانت حلالاً قبله ، وأخذتم ذلك عنه .

وجاءه جماعة من الأحبار يريدون منه الحكم على شريف وشريفة منهم قد زنيا وهم محصنان فدعا بالشهود وحكم عليهما بالرجم . فأنكروا عليه ذلك . فقال : أتعرفون شاباً أبيض أمرد أعور يسكن فدكا (اسم بلد) يقال له ابن صوريا ؟ قالوا : نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله : ورضوا به حكماً ، فلما حضر قال له النبي : أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى وفق البحر ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى . والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على الزاني المحصن قال : نعم . وتشهد ، فوثب عليه سفلة اليهود وآذوه .

المنافقون

وكان حول النبي أكثر من ثلثمائة من الأوس والخزرج منافقين يتظاهرون بالإسلام وهم على دين قومهم . وإنما حملهم على الظهور بالإسلام تقيّة القتل ومطاوعة إجماع القوم ، ومنهم عبد الله بن أبي سلول وكان من أهل المدينة وقد عزموا على تتويجه ملكاً عليهم (لأن الأوس والخزرج من آل قحطان) وأبطل ذلك مجيء الإسلام . فلما انتقل النبي من قباء إلى المدينة عرج على عبد الله بن أبي بن سلول بقصد النزول عنده تألفاً له فاستقبله لدى باب الدار وقال له : إذهب إلى الذين دعوك وأنزل عليهم . فقال سعد بن عبادة على مسمع من عبد الله : يا رسول الله لا تجد في نفسك من قوله . فقد قدمت علينا والخزرج يريد أن تملكه . فلما رد بالحق الذي أعطاك الله شرق ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه .

ومر النبي على عبد الله بن أبي بن سلول في جماعة ، فقال : لقد آذانا ابن أبي كبشة (لقب زوج حليلة المربعة) في هذه البلاد فسمع قوله عبد الله بن عبد الله بن أبي (صحابي) فاستأذن النبي أن يأتيه برأسه ، فقال النبي : لا ، ولكن برأباك .

ومر على مجلس فيه ابن سلول وأخلاق من المسلمين والمشرّكين واليهود فنار غبار من مشى الحمار نخمر (غطى) ابن أبي وجهه بردائه وقال : لا تغبروا علينا — وسلم النبي ونزل إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال ابن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا . إرجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه . فقال عبد الله بن رواحة (مسلم) بلى يا رسول الله فاعشنا به فإننا نحب ذلك . واستتب (تساب) المسلمون

والمشركون واليهود حتى كادت تقع بينهم حرب ، فلم يرل النبي يخفضهم حتى سكتوا . ثم ركب وسار . فدخل على سعد بن عباد . فقال : يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب (يعني ابن أبي) قال كذا وكذا . فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح . فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد شق ابن أبي بما جئت به . فغفا النبي عنه .

وبالجملة فقد لقي النبي كثيراً من شديد أذى اليهود والمنافقين في المدينة . ولكنه بالنسبة لأذى أهل مكة قليل جداً حيث كان في المدينة في غاية من العزة والمنعة والقوة .

المغازي الإسلامية

نهى القرآن عن القتال في مواضع كثيرة لقلّة عدد المسلمين في مكة ، حتى لقد سأله بعض من اشتد به الأذى من أصحابه أن يأذن لهم بالقتال فامتنع وقال : كفوا أيديكم فاني لم أؤمر بقتال . فلما هاجروا إلى المدينة ورمتهم العرب قاطبة عن قوس وتحرشوا بهم ، ولم يأذن لهم النبي كانوا في حذر يتوقعون الأذى حتى ممن كانوا حولهم . فكانوا لا يبيتون ولا يصبحون إلا في السلاح . وكانت قد قويت شوكتهم واتلافهم في المدينة وعرفوا ملجأ يرجعون إليه — فأذن لهم بالقتال بقوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، فكان الناس في نظر الدين ثلاثة (١) كفار محاربون وجب قتالهم (٢) أهل عهد من غير عقد الجزية صولحوا على أن لا يماربوا النبي ولا يظاهروا عليه عدواً ، وهؤلاء مع كفرهم آمنون على دماءهم وأموالهم (٣) أهل ذمة عقدت عليهم الجزية . أما من دخل الاسلام تقية وهم المنافقون ، فإن النبي أمر أن تقبل منهم علانيتهم

وتترك سرايرهم إلى الله ، وترك بلا وحى — أمر الخروج إلى القتال — إلى اختيار النبى وصحابته . وفى المغازى السرايا التى لم يقع بها حرب ولا حصل المسلمون منها على نفع توحىة النفوس إلى القتال وتشويقها إلى الغزو وتذبيها إلى الفوز والانتصار على ما فى ذلك من إرهاب العرب وتخويفها بقوة المسلمين وكثرة عددهم واتحاد كلمتهم .

سرية الساحل

وبدأ النبى غزواته بالسهل الممكن وهو غير قريش رجاء أخذ ما فيها ليكون ذلك سبب افتتاح القتال . ولتقوى قلوب أصحابه على المعارك شيئاً فشيئاً . ولينتفعوا بما يحصل من الغنيمة . فبعث عمه حمزة بن عبدالمطلب أميراً على ثلاثين رجلاً كلهم من المهاجرين لتطمئن نفوس الأنصار . وليكون هو لم يخرج بهم عما اشترطوه وقت البيعة من أنهم إنما يمنعونهم فى دارهم . فخرج حمزة وسريته ليعترضوا غير آل قريش جاءت من الشام تريد مكة . وكان فى هذه العير أبو جهل فى ثلاثمائة راكب . فلما بلغت العير ساحل البحر من ناحية العيص وتواجه الفريقان وتصافا للقتال ، جاءهم مجدى بن عمرو الجهنى (وكان مصاحداً للمسلمين فى قريش) وحال بين الفريقين ومنع القتال فانصرف القوم ولم تقع بينهم حرب . ولما عادوا وأخبروا النبى بعدد قريش قال فى مجدى : إنه يميمون النقيية مباركك الأمر .

سرية بطن رابغ

وجيز النبى سرية عبيدة بن الحارث بن المطالب بن عبد مناف فى ثمانين من المهاجرين إلى جيش يبلغ المائتين مع أبى سفيان بن حرب فتلاقيا فى بطن

رابع وكان المسلمون في طريق صخرية مرتفعة وجماعة قريش على الطريق المعتاد. وشد المسلمون لقتالهم. فسبقتهم قريش وأسرعوا السير، ورأى سعد ابن أبي وقاص أنهم سيفوتونهم هرباً فتقدم أصحابه ونثر كنانته ورأى بما فيها وكان عشرين سهماً ما فيها سهم إلا جرح إنساناً أو دابة. ونجت قريش وعاد المسلمون ولهم قوة وشوكة، وتظاهر من قريش المقداد بن عمرو وعتيبة بن غزوان بالتقصير فتأخرا عن أصحابهما وكانا مسلمين وخرجا ليصلا إلى النبي فلاحقا بالمسلمين ورجعا معهم إلى المدينة.

سرية الخرار

وأمر النبي بخروج سعد بن أبي وقاص إلى الخرار (بتشديد الراء الأولى مفتوحة واد في الحجاز ينتهي إلى الجحفة) في عشرين رجلاً من المهاجرين يعترض غير آل قريش. فخرجوا على أقدامهم ووصلوا الخرار فوجدوا العير قد مرت قبل قدومهم بيوم فرجعوا.

غزوة الأبواء

خرج النبي في ستين راكباً يريد غير قريش في الأبواء وولى على المدينة سعد بن عباد ولواؤه يومئذ في يد حمزة بن عبدالمطلب. فقاتته العير، ولقي بنى ضمرة بن بكر (بطن من كنانة) فتقدم إلى النبي سيدهم مخشي بن عمرو الضمري وطلب إليه الصلح، فأجابه على أنهم لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً ولا يعينون عليه عدواً، وإذا دعاهم لنصره أجابوه. وكتب بذلك بينهم كتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنوا على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم بسوء

بشرط أن لا يحاربوا ضد دين الله ما بلّ بحرصوفة ، وأن النبي إذا دعاهم
لنصره أجابوه ، وعليهم بذلك ذمة الله ورسوله . ثم انصرف راجعاً
إلى المدينة .

غزوة بواط

وخرج النبي في مائتين من المهاجرين إلى بواط (بفتح الباء وضمها جبل
من جبال جهينة بقرب ينبع) يعترض بها عيراً تحمل تجارة لقريش فيها مائة
رجل وعليهم أمية بن خلف وترك على المدينة سعد بن معاذ . وكان لواءه
بيد سعد بن أبي وقاص ، حتى إذا جاء بواطاً وجد العير قد سبقته فرجع .

غزوة العشيرة

وبلغ النبي أن عير قريش ستصدر من مكة إلى الشام بتجارة جمعت قريش
فيها أموالها تحت إمرة أبي سفيان بن حرب ومعه تسعة وثلاثون رجلاً فيهم
مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاصي . فخرج النبي في مائتي رجل من المهاجرين
إلى العشيرة (تصغير عشرة) وترك على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد
الخزومي . ولواءه بيد حمزة بن عبد المطلب . فوجد العير قد مضت . وفي
هذه الغزوة صالح بن مديج بن كنانة حلفاء بني ضمرة ، ورجع ولم يلق حرباً .

غزوة سفوان

وأغار كرز بن جابر الفهري (أسلم) على سرح المدينة (الإبل والمواشي)
فخرج النبي وراءه وخلي على المدينة زيد بن حارثة . وكان لواءه بيد علي
ابن أبي طالب . فسان حتى بلغ سفوان (موضع من ناحية بدر) وفاته كرز
ابن جابر فرجع .

سرية نخلة

وجّه النبي عبد الله بن جحش (أول من سمي بأمر المؤمنين) في ثمانية من المهاجرين، وكتب له كتاباً أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ويمضي لما أمره به ولا يكره على مرافقته أحداً من أصحابه، فلما سار يومين فتح عبد الله الكتاب فقرأ فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة (بين مكة والطائف) فترقب بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم، فأخبر أصحابه أنه نهاه أن يستكره أحداً منهم، فلم يتخلف أحد. وسلك طريق الحجاز حتى إذا كان ينجران فقد سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يتعاقبان عايه (يتناوبان ركوبه) فتخلفا في طلبه. ومضى عبد الله وأصحابه فنزلوا نخلة. فمرت بهم عير قريش تحمل زبيداً وأدماً (جلوداً) وتجارة من تجارات قريش ومعهم عمرو بن الحضرمي وعثمان بن نوفل ابنا عبد الله المخزوميين والحكيم بن كيسان فنزلوا أقربهم، فهاجم المهاجرون، فأوعز عبد الله بن جحش إلى أحد أصحابه فحلق رأسه وأشرف عليهم فرأوه فاطمأنوا، وقالوا أعمار معتمرون (حجاج) لا بأس علينا منهم، وقيدوا رحالهم وسرحوها، وصنعوا طعاماً. وتشاور المسلمون، فقالوا: نحن في آخر يوم من رجب أو في أول يوم من شعبان (أي شكوا في يومهم أنه من الشهر الحرام أم لا) فإن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر، وإن تركناهم دخلوا حرم مكة فامتنعوا به منا، وأخيراً شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتالهم، فجمعوا عليهم، ورمى عبد الله بن واقد عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسروا عثمان بن عبد الله المخزومي والحكيم بن كيسان وفر الباقيون واستاق المسلمون العير (وهي أول غنيمة في الإسلام) ورجعوا بها إلى النبي وأخبروه الخبر، فقال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر

الحرام . فسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد عصوا وعنفهم إخوانهم فيما صنعوا وقالت قريش : إن محمداً سفك الدماء ، وأخذ الأموال في الشهر الحرام وبعثت تعير النبي بفعل أصحاب السرية . فنزل القرآن يقول : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير ، وصدد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة (أى الكفر) أكبر من القتل ، فأيد بذلك فعل السرية . وبعثت قريش في فداء عثمان بن عبد الله المخزومي والحكم بن كيسان فقال النبي : لا تفديكما وهما حتى يقدم صاحبانا (يعنى سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان المتخلفين في طلب بعيرهما) وإن تقتلوهما تقتل صاحبيكم .

وقدم سعد وعتبة بعدها بأيام ، وأسلم الحكم بن كيسان وأقام بالمدينة . ولحق عثمان بن عبد الله بمكة .

فرض الصيام والزكاة

وفي هذه الأيام حولت القبلة إلى الكعبة بعد الاتجاه إلى بيت المقدس . وفرض صيام رمضان وزكاة المال وسنت زكاة الفطر .

وفد نصارى نجران

ووفد على النبي وفد نصارى نجران (نجران بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن تشمل ثلاثاً وسبعين قرية) وقدموا المدينة وعليهم ثياب الحرير وأردية الحرير وخواتم الذهب ومعهم هدية وهى بسط فيها تماثيل ومسوح ، فقال لهم النبي : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه

المسوح فإن تعطونها آخذها . فقالوا نعم نعطيكمها

ورأى فقراء المسلمين زيمهم وزيتهم فتشوفت نفوسهم إلى مثلها فنزل قوله تعالى « قل أو نبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا . عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فيها أزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » واستأذنه النصراني في الصلاة بالمسجد فأذن لهم فدخلوا إلى مسجد النبي . وأراد الناس منعهم فقال النبي : دعوهم (تألفاً لهم ورجاء لإسلامهم) .

فلما فرغوا من صلاتهم أتوا النبي فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن . فامتنعوا قائلين : إنا مسلمون . قال : كذبتكم يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً .

قالوا : فهل رأيت مثل المسيح أو أنبئت به ، فغنا غفوة ونطق بآية « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » قال أحدهم : بل هو الله . فغنا النبي ثانية ونطق بآية « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » الآية . وبآية « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

(قالوا : إن الله هو المسيح . وليس لهم سند على ذلك سوى الادعاء بأن معنى ذلك ورد بالإنجيل وإن بعد قبوله في العقل . وقال : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، ومكان قوله من الاستقرار في العقل مكانه . إذ لو كان الله هو المسيح لكان حادثاً في الجسمية وفي تقلبه في صور التكوين وتحت حكم الزمان ، ولكن هذا في نظرهم غير قوى ، فلم يبق دليل من نوع الحسن لمن

لا يؤمن بالغيب على صدق أحد القولين إلا أن يقف النصارى موقف
المستنصر بالإله السماوى الأرضى على مخاصمهم فيه ، ويقف النبي مبتهلاً إلى
الإله الواحد بنصره على معارضة فى اعتقاد وحدته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث
فقالوا : يا أبا القاسم نرجع فننظر فيما طلبت غداً وخلا بعضهم إلى
بعض فقالوا : نرى أن الرجل على ثقة من قوله . فان لا عتموه استؤصاتم
(أخذتم عن آخركم) فوادعوه وصالحوه وارجعوا إلى بلادكم .

وأصبحوا فى انتظاره وأقبل ومعه على بن أبى طالب وولداه حسن وحسين
وأمهما فاطمة . فقال الأسقف : إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل لهم
جبلاً لأزاله ، فلا تباهلوهم فهلكوا . فأقبلوا يعتذرون إليه ، وصالحوه على
الجزية وكتب لهم كتاباً وأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح استئماناً لهم
وقال : هذا أمين الأمة ، وسار أبو عبيدة معهم إلى موضع أمنهم .

غزوة بدر

تقدم أن صدرت غير قريش تحمل تجارة واسعة يأمرة أبى سفيان بن حرب
وخرج النبي يعترضها . وبلغ بمن معه العشيرة فوجد العير قد فاتته . فكان
يترقب عودتها ، ونما إليه خبر مفارقتها الشام فقال لأصحابه : هذه غير
قريش وأموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها . ومن كان ظهره
(أى مايركبه) حاضراً فليركب معنا . ولا ينتظر من كان ظهره غائباً . وولى
على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى ، واستعمل على الصلاة بالناس ابن أم
مكتوم (الأعمى) وتخلف سعد بن عباد لأنه كان مريضاً بلدغة حية ، وعثمان
ابن عفان لتمريره زوجته رقية (بنت النبي) وحجز النبي لكل منهم سهمه من

الغنيمة بعد حضوره ، وتخلف أيضاً جماعة أمر النبي بتخلفهم بالمدينة ، وخلف على قباء وأهل العالية عاصم بن عدى بسبب شيء كان قد بلغه ، وعقد لواء أبيض ودفعه لمصعب بن عمير ، وجعل أمامه رايتين سوداوين إحداهما مع علي بن أبي طالب والأخرى مع سعد بن معاذ ، ثم ضرب معسكره ببر أبي عتبة (على ميلين من المدينة) واستعرض أصحابه فكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر ففرح ولبس عدة حربه . وقال : اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعرة فالبسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك . ثم سار بالجيش فبلغ الروحاء (موضع به بر على نحو أربعين ميلا من المدينة)

وكان أبو سفيان بن حرب وهو قادم في طريقه بغير قريش لقي رجلا فأخبره أن محمداً كان قد عرض له ولغيره ، وأنه بأصحابه ينتظر رجوع العير فسار أبو سفيان حتى قرب من أرض الحجاز وهو يتجسس الأخبار ويسأل الركبان ، فسمع أن محمداً استنفر أصحابه له ولغيره ، فخاف خوفاً شديداً . ودفع أجراً إلى ضمضم بن عمرو الغفاري ليأتي مكة ويجدع بغيره ويشق قميصه ويحول رحله ويستنفر قريشاً ويخبرهم أن محمداً قد عرض هو وأصحابه لغيرهم (وكانت هذه العير فيها أموال قريش)

وقبل قدوم ضمضم بثلاث ليال رأت عاتكة بنت عبد المطلب (أسلت) في نومها رؤيا أفرعتها ، فاستدعت إليها أخاها العباس بن عبد المطلب . وقالت له : رأيت الليلة يا أخي رؤيا أخافتني ، فأنا أخشى أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكمعنى ما أحدثك ولا تذكره فإذا سمعت قريش بذلك أسمعونا مانكره . رأيت راكباً على بغير وقف بالأبطح وصرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم بعد ثلاث ودخل بالبعير الى المسجد

والناس يتبعونه فانتصب على ظهر السكبة وصرخ بمثلها . واعتلى به البعير على رأس أبي قبيس (الجليل) فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة وأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (تكسرت) فبأبقي بيت في مكة إلا دخله منها فلقية (قطعة) فقال العباس : إن هذه لرؤيا عظيمة فاكتمها ولا تذكرها لأحد . وخرج فلقى الوليد بن عتبة ، وكان صديقاً له فذكر له الرؤيا واستكتمه ، فذكرها الوليد لأبيه ، فتحدث بها وفشا التحدث بها . وأصبح العباس ليطوف بالسكبة وشم أبو جهل بن هشام في رهط في قريش يتحدثون برؤيا عائكة . فقال أبو جهل للعباس : يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم النبية ؟ قال العباس : وما ذاك ؟ قال الرؤيا التي رأيها عائكة . أما رضىتم يا بني عبد المطلب أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عائكة أن رجلاً يقول : انفروا بعد ثلاث . فسنترصد بكم هذه الثلاث . فإن يكن حقاً ما تقولون فيكون . وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء كتبنا إليكم كتاباً أنكم أكذب بيت في العرب : فقال العباس : أنت منبته يا جنان . فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك ، وقام الناس بينهما ورجع العباس فلقى من عائكة لوماً شديداً على إفشاء حديثها وما أمسى المساء حتى وافينه نساء عبد المطلب يقان له : أقررتم هذا الحديث الفاسق أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت سامع ولم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت . فقال العباس : وأيم الله لا تعرضن له وإن عاد لأقتلنه . وغدا في اليوم التالي يريد التعرض له ودخل المسجد وبصر بأبي جهل فمشى إليه وإذا بأبي جهل يعدو إلى باب المسجد على صراخ ضخم بن عمرو الغفاري على بعيره يبطن الوادي وقد جدع (قطع) أنف بعيره وأذن وحول رحله وشق قميصه وهو يقول : اللطيمة اللطيمة

(أدركوا اللطيمة وهي العير) مع أبي سفيان ، عرض لها محمد في أصحابه وأرى أن لا تدركوها . فشغل هذا الخبز جميعهم . وتجهز الناس سراعاً وفزعوا أشد الفزع من رؤيا عاتكة . وقالوا أياظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ، والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأعان قويمهم ضعيفهم . وقام لأشراف قريش يحشون عامتهم على الخروج . ونادى سهيل بن عمرو : أتاكون أنتم محمداً والصبأة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مالى ومن أراد قوة فهذه قوتي ونهض القوم ولم يتخلف إلا أبو طهب خوفأ من رؤيا عاتكة . وقال : رؤيا عاتكة كأخذ باليد (أى ملهوسة) وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه .

واتفق أن كان سعد بن معاذ الأنصارى وسيد بني الخزرج قد قدم مكة معتمراً ونزل على أمية بن خلف (لأنه كان ينزل عليه في المدينة) فقال سعد لأمية : أنظر لى ساعة لأطوف البيت . فقال أمية إذا انتصف النهار وبينما سعد يطوف أتاه أبو جهل فقال : من هذا ؟ قال أنا سعد بن معاذ قال : أنطوف بالكعبة آمناً وقد آويت محمدأ وأصحابه وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان (يعنى أمية) مارجعت إلى أهلك سالماً ، فلم يتركها له سعد وتلاحيا (تشاجرا) وسعد يرفع صوته فجعل أمية يسكته ويقول : لا ترفع صوتك على أبى الحكم فانه سيد أهل الوادى . فقال سعد لأمية : إليك عنى فقد سمعت النبي يقول : إنك ستقتل . قال أمية : إياى يعنى ؟ قال سعد نعم ، قال : بمكة ؟ قال لا أدري قال : إنه والله ما كذب محمد . وكاد يحدث (يبول) في ثيابه فزعأ ، وذهب سعد ، ورجع أمية إلى

امراته فقال : ماتعين ما قال أخى اليربى ؟ (يعنى سعد بن معاذ) قالت : وما ذاك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبره بأنه قاتلى : قالت والله ما كذب محمد ، فلما جاءه الصريح ذكرته امرأته بما قال ، فقال : لا أخرج أبداً فأتاه عتبة بن أبى معيط بإغراء من أبى جهل وهو جالس مع قومه ومع عتبة بحجرة فيها بخور ووضعها بين يديه وقال : استجهر يا أبا على ، فانما أنت من النساء ، فخرج معهم على نية الرجوع من الطريق وكذلك كان عزم بعض كبار قريش ، وخرجوا فى تسعمائة وخمسين يحمل لواهم السائب بن يزيد (أسلم وهو الأب الخامس للإمام الشافعى) ومعهم المغنيات يضربن بالدفوف وينشدن بهجاء المسلمين وجميعهم فى غاية البطر والخيلاء

أما أبو سفيان فقد كان بعد ذهاب ضمضم شديد الحذر فأخذ يسير بالعير على طريق الساحل وجد فى السير قفات طريق يثرب . ولما اطمأن أرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع ، فوصلهم رسوله وهم بالجحفة فامتنع أبو جهل وقال : والله لا نرجع حتى نحضر بدرأ فنقيم فيه ثلاثة أيام وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القينات بالمعازف وتسمع العرب بمسيرنا قتها بنا أبداً .

وسمع هذا الأخنس بن شريق الثقفى (أسلم) وكان حليفاً لبني زهرة . فخلاً بأبى جهل ، وقال له : إنه ليس بينى وبينك أحد ، أترى محمداً يكذب ؟ قال أبو جهل : ما كذب محمد قط وكنا نسميه الصادق الأمين ، لكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شئ يكون لنا ونحن معهم كفرسى رهان ؟ فرجع الأخنس إلى بنى زهرة وقال لهم : يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم (يعنى

مخرمة بن نوفل لأنه كان في غير أبي سفيان) وإنما نفرتم لذلك ، فارجعوا فانه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعة ودعوا ما يقول هذا (يعني أبا جهل) فرجعوا جميعاً ، وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وساروا ففزلوا بالعدوة القصوى بقرب الماء .

وفي البرحاء بعث النبي برجلين يتجسسان أخبار غير أبي سفيان ، فضيا حتى نزلا بدرأ وأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذا يستقيان فسمعا جارية تقول لأخرى : إن أتانا العير غداً أو بعد غد أعمل لهم (أى أخدمهم) فأقضيك الذى لك ، فانطلقا وأخبرا النبي بما سمعا ، فقال النبي لأصحابه يستشيرهم : إن الله وعدمكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قریش ، فما تقولون ؟ العير أحب إليكم أم البغير ؟ فقام أبو بكر وتكلم فأحسن ، وقام عمر وقال فأحسن ، فقال النبي : أيها الناس أشيروا على (وهو يريد الانصار لأن مقتضى مبايعة العقبة أنهم يمنعونهم وينصرونه في ديارهم) ولما أعاد طلب الاستشارة قام سعد ابن معاذ (وهو من الانصار كآبى بكر من المهاجرين) فقال : والله لكأنك يا رسول الله تريدنا ، قال النبي : أجل ، قال سعد : قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به الحق وأعطيناك على ذلك عهداً ومواثيق بالسمع والطاعة ، ولعلك تخشى أن يكون الانصار ترى أن لا ينصروك إلا في ديارهم ؟ وأقول عن الانصار وأجيب عنهم : امض يا رسول الله لما أمرت وصل جبال من شئت وسالم من شئت وعاد من شئت وخذ من أموالنا ما شئت ، فما أخذت منا أحب إلينا مما تركت ، وصرنا نتبع أمرك ، والله إنك لو سرت بنا حتى برك الغماد لنسيرن معك ، ولو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى عدونا وإنما لصبر

عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله فنحن عن يمينك وشمالك وبين يديك وخلفك ، ولسنا كالذين قالوا موسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون ، فسر النبي بقوله ، وقال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين إما العير أو إما النفيير ، وقد فانت العير فلا بد من الطائفة الأخرى ، ووعد الله لا يخلف .

وسار النبي بصحابه فزل قريباً من بدر ، وبعث على بن أبي طالب والزبير العوام وسعد بن أبي وقاص يتحسسون الأخبار فأتوا بغلامين لبنيه ومنبه بنى الحجاج ومعهما راوية ، فقال لهما : النبي أخبراني عن قريش ؟ قالوا : إنهم وراء الكثيب (التل الرمل) قال : كم القوم ؟ قالوا : كثير عددهم شديد بأسهم . قال : كم ينحرون (من الجزر) كل يوم ؟ قالوا : يوماً تسعة ويوماً عشرة . فقال لأصحابه : القوم بين التسعمائة والألف . ثم قال للغلامين : ومن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : عتبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم ابن حزام ونوفل بن خويلد وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام والنضر ابن الحرث وسهيل بن عمرو . فقال النبي لأصحابه : هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ (قطع) كبدها .

ونزلت قريش بالعدوة القصوى (العدو جانب الوادي وحافته ، والقصوى البعيدة عن المدينة) ونزل المسلمون على كثيب أعقر (أبيض وأحمر) تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب . وقد سبقتهم قريش إلى ماء بدر فأخذوه وحفروا القلب لأنفسهم ليجعلوا فيه الماء من الآبار المعينة . فأرسل الله مطراً سال به الوادي . فشرب المسلمون واتخذوا الحياض على

عدوة الوادى ، وأطفأ المطر الغبار ولبدت الأرض فثبتت عليها الأقدام
وذعرت قريش وخافت ، وأصاب المسلمين نعاس بسبب تطامن نفوسهم .
وطلع الصبح فنادى النبي للصلاة وجاء المسلمون من تحت الأشجار والجحف
ليصلى بهم . وخطب فحضر على القتال وفي ضمن قوله : إن الصبر فى موطن
البأس مما يفرج الله به الهم وينجى من الغم . وخرج يبادرهم إلى الماء فجاء أدنى
ماء من بدر . فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله هذا منزل
أنزلك الله . لا تتقدم ولا تتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟
قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . وقال الحباب : إن هذا ليس بمنزل .
فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القرشيين .

(وإلى هنا ينتهى القسم الأول من تقسيم المؤلف رحمه الله ، ويتلوه القسم

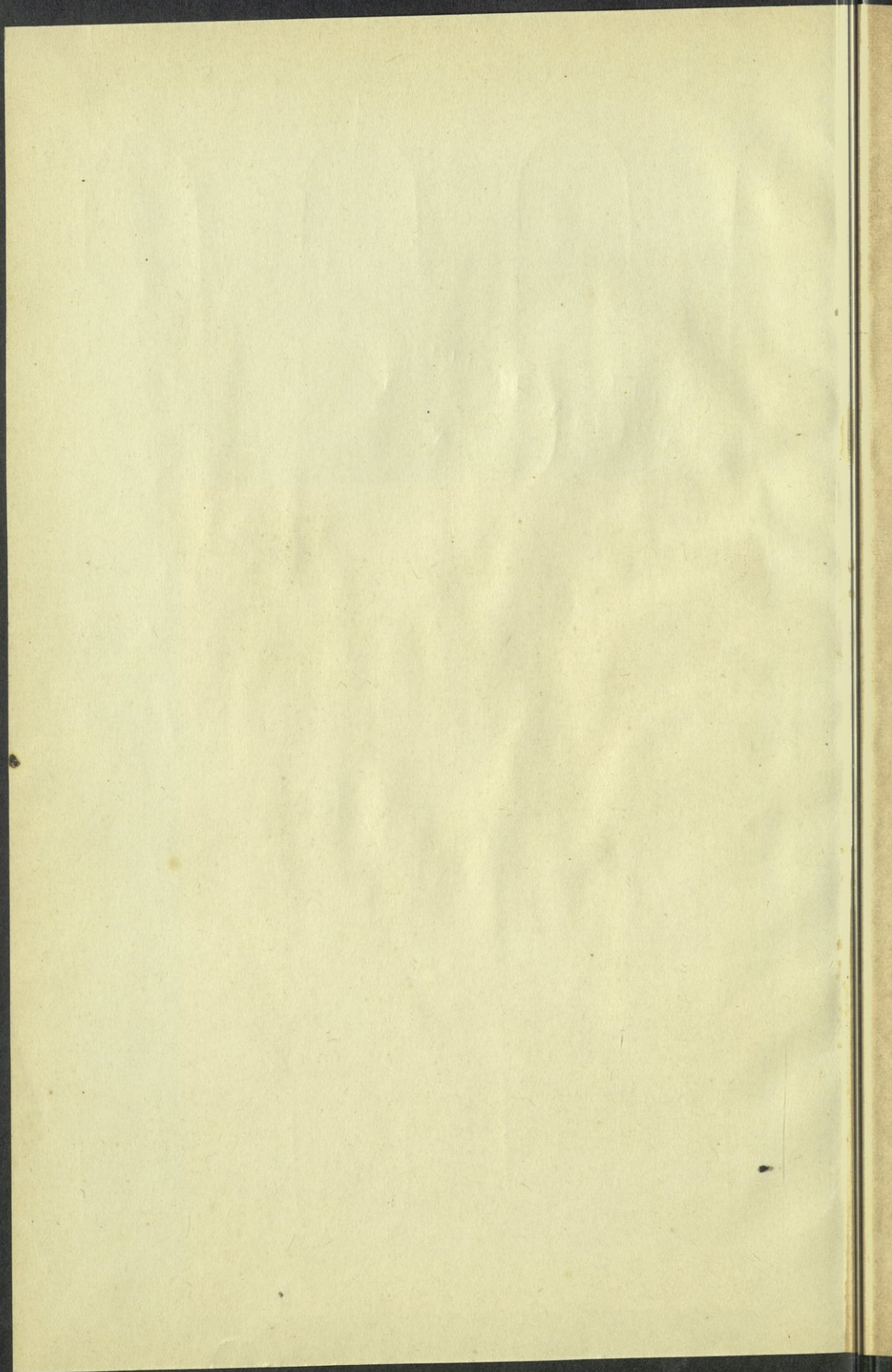
الثانى إن شاء الله)

الفهرست

١	كلمة لكرامة المؤلف
٢	مقدمة المؤلف
٣	كلمة المؤلف
٨	مقدمة عامة عن العرب والجزيرة
٢٥	التاريخ القديم — حديث التاريخ
٢٦	مكة والتاريخ
٢٧	العصور الغابرة — ملوك مكة القدماء
٢٩	أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم — عدنان
٣٠	معد
٣١	نزار . . . مضر . . . إلياس
٣٢	مدركة . . . خزيمه
٣٣	كفانة . . . النضر
٣٤	مالك . . . فهر
٣٥	غالب . . . لؤى
٣٦	كعب . . . مرة
٣٧	حكيم . . . قصي
٤٠	عبد مناف . . . هاشم
٤٢	عبد المطلب
٤٤	اكتشاف زمزم
٤٥	زواج عبد الله

٤٦	محمد صلى الله عليه وسلم — مولده
٤٧	إرضاعه
٤٩	تربية محمد
٥٣	أبو طالب
٥٥	شجوبه محمد
٥٦	متاجرته محمد لخديجة
٥٨	زواج محمد بخديجة
٥٩	بناء الكعبة
٦٠	شغل محمد بنفسه
٦١	مبدأ النبوة
٦٢	مبدأ الوحي
٦٣	نزول الوحي
٦٥	أحوال الوحي . أول التكليف . بدء الدعوة
٦٦	سير الدعوة
٦٧	إسلام ابى بكر . السابقون إلى الإسلام
٦٨	إسلام عثمان — إسلام الزبير — إسلام عبد الرحمن بن عوف
٦٩	إسلام سعد . إسلام طلحة وآخرين
٧٢	الاقبال على الإسلام
٧٣	إبلاغ الدعوة إلى الأقربين
٨١	إسلام حمزة
٨٢	أذى قريش للمسلمين . معارضة قريش للنبي
٨٥	قضية الأعمى
٨٦	امتحان قريش للنبي
٨٧	أبو جهل والنبي . أذى قريش للنبي

١٣٨	تحدى اليهود
١٤١	المنافقون
١٤٢	المغازى الإسلامية
١٤٣	سرية الساحل
١٤٤	سرية الخرار
١٤٥	غزوة بواط
١٤٦	سرية نخلة
١٤٧	فرض الصيام والزكاة
١٤٩	غزوة بدر



DATE DUE

SAFETY LIB.

3

1982

J. Lib.

11 NOV 1984

297.63:H968nA:v.1:c.1

حسين، محمد

النبي محمد، صلى الله عليه وسلم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01012313

American University of Beirut

297.63:H968nA

v.1

حسين

:11

297.63
H968nA
v.1

297.63
H968nA
v.1
c.1